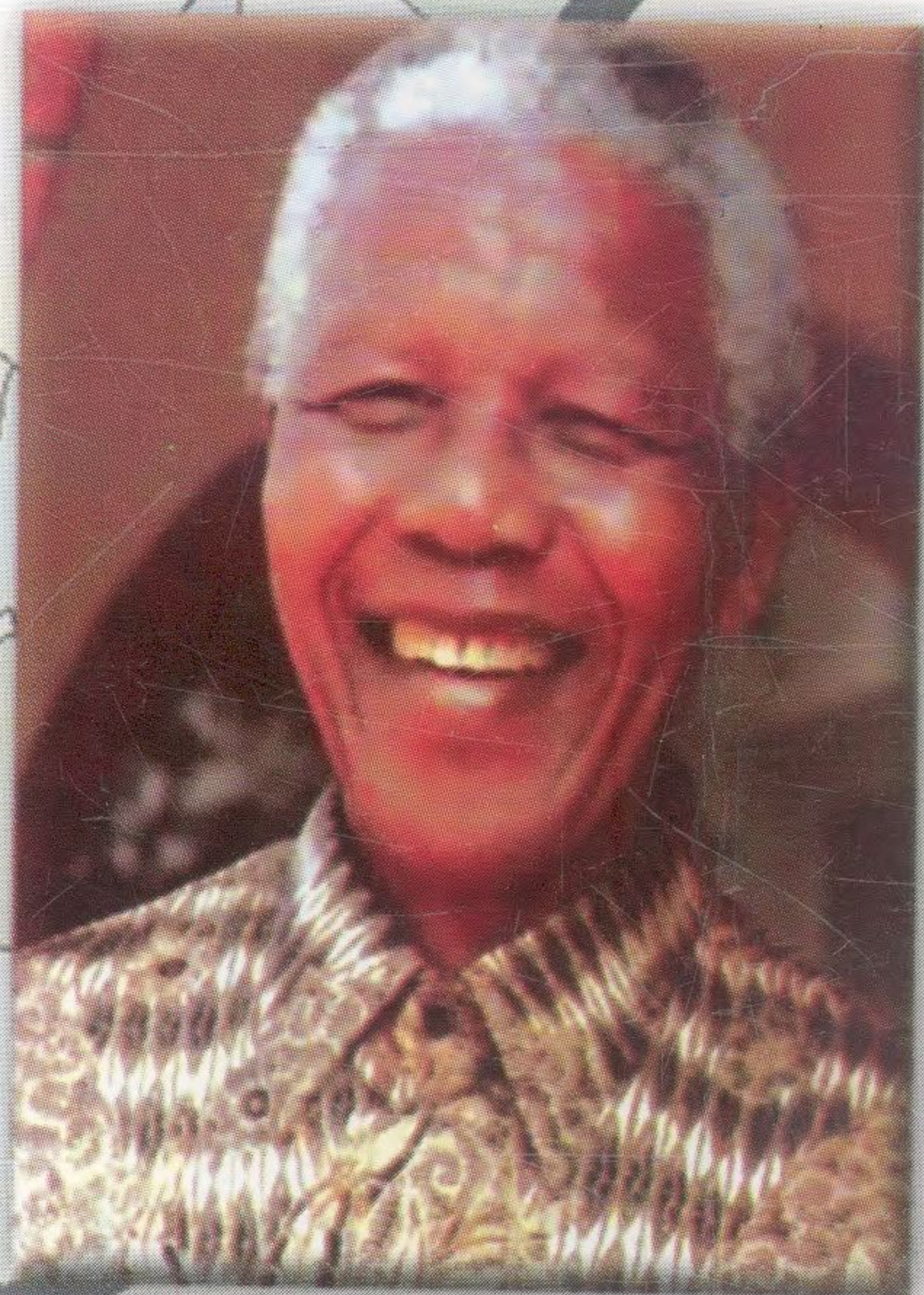


من مانديلا الى عبد الله الطيب

د. هاشم مسايوي



من مانيلا إلى عبد الله الطيب

هاشم مساوي



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان

الكتاب : من مانديلا إلى عبد الله الطيب

المؤلف : هاشم مساوي

رقم الإيداع : ٢٠٩٩٣ / ٢٠٠٨

تاريخ النشر : ٢٠٠٨

ردمك : ١٦٢ - ٥٤ - ٩٩٩٤٢

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة ولا يسمح بإعادة

نشر هذا العمل كاملاً أو أى قسم من أقسامه ، بأى شكل من

أشكال النشر إلا بإذن كتابي

الناشر : دار عزة للنشر والتوزيع

الإدارة : شارع الجامعة - الخرطوم - جنوب وزارة الصحة.

ت: ٨٣٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٨٣٧٩٧٠٨٤ (١ - ٢٤٩ +)

التوزيع : دار عزة للنشر والتوزيع ت: ٨٣٧٨٧٢٠١

السودان - الخرطوم . ص.ب : ١٢٩٠٩

azzaph@yahoo.com

بريد إلكتروني

أمّا الإهداء

فأرجو أن يكون لوالديّ الذين لا أستطيعُ أن أوفيهما
حقهما إلا أن أقول ... ربّي ارحمهما كما ربياني صغيراً فبهما
تعرفت على الفضيلة ومنهما تعلمت التطلع إلى ما هو أفضل.

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل لأهل و أسرة المرحوم بروفيسور عبد الله الطيب وخاصة السيدة قرزيلدا لما وجدته من دعم و مساعدة في إعداد هذا الكتاب و ذات الشكر موصول لأسرتي الصغيرة و الكبيرة وخاصة الأخ أحمد مساوي الذي شجعني و صحبني منذ بدايات هذا العمل و مقابلاتنا الأولى مع المرحوم بروفيسور عبد الله الطيب عام ١٩٨٨ كما أشكر الأخ الصديق مقامات شهيد سلمون و بقية الإخوة من جنوب أفريقيا الذين رافقوني في العديد من الزيارات في جنوب أفريقيا و أمدوني بالكثير من المعلومات الواردة في هذا الكتاب و ساعدوني لإجراء مقابلة شخصية مع المناضل أحمد كاثرادا، رفيق المناضل نيلسون مانديلا في حركة التحرير وزميله في السجن على مدى ربع قرن من الزمان. و الشكر الجزيل للزملاء والإخوة بالمدينة المنورة و البروفيسور إبراهيم الحارثي بكلية الآداب بجامعة الخرطوم والدكتور عمر محمد سعيد بالدراسات العليا بجامعة أفريقيا و ذات الشكر موصول لابن الدامر الأديب السر قدور وكل الذين ساهموا في الإطلاع ومراجعة النصوص قبل النشر.

هاشم مساوي

المدينة المنورة ١٤٢٩ - ٢٠٠٨

hashimmissawi@hotmail.com



بروفسير عبد الله الطيب
والكانب ونقاشات مستفيضة
حول نظرية التطور ومواضيع
أخرى عام ١٩٨٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الدكتور الطبيب المحترم هاشم مساوي

لقد قرأنا كتابك القيم الذي أصبت فيه في مكنن لم يسبقك فيه كاتب من قبل فلذا فنحن باسم أسرة العالم المرحوم عبد الله الطيب نشكرك شكراً خالصاً من قلوب انتمت إلى المرحوم وامتألت حباً ووداً فياضاً انداح لقلوب أهل السودان و العالم العربي و الأفريقي والغربي ليصادف حب فردٍ من أرضنا السمراء و هو شخصك المثقف العالم والذي أعجب بشخصيتين تأصلت عندهما الروح الإنسانية العظيمة الفعالة تجاه قضايا مجتمعاتهم وهذا إن دل على شيء إنما يدل على نفس أصيلة تنتمي إليهما و تعبر وفاء قلماً يوجد في هذا الزمان فكل الشكر و التقدير تشكر أسرة المرحوم البروفيسور عبد الله الطيب الدكتور الطبيب البارع ثقافياً و طيباً هاشم مساوي لمحاولته الذكية التي كشفت عن النفس الإنسانية المتمثلة في التشابه الشديد بين عميد أسرتنا العظيم المرحوم البروفيسور عبد الله الطيب و المناضل العظيم الذائع الصيت نيلسون مانديلا في كتابه (من مانديلا إلى عبد الله الطيب) الذي أدهشنا فيه بأدق التفاصيل و أوجه الشبه بينهما فما طوق أعناقنا بقلادة من فرح ماسي خفف بها عنا الحزن الأليم الذي نعانيه لفقد حبيبنا العزيز.

وهذه المقدمة التي نقدم بها كتابه لكل المحبين في العالمين العربي والأفريقي ما هي إلا تعبير صادق وعرفان لهذا الحب العميق الذي عانقنا به الدكتور هاشم مساوي.

و نسأل الله أن يوفقه و يسدد خطاه لما فيه خير هذه الأمة و نفع الإنسانية.
و صلى الله و سلم على سيدنا محمد و آله و سلم تسليماً كثيراً

أسرة البروفيسور عبد الله الطيب

ديسمبر ٢٠٠٥

FOREWORD

During Professor Abdulla El Tayib's life service to the University of Khartoum as Dean, Vice chancellor, and Chairman of the Council he always had an especially strong appreciative relationship with the Faculty of Medicine Drs. Daoud Mustafa, Hassan Abu Bekr and Nur Abdel Majeed were his lifelong friends. This mutual respect culminated in the opening of the Soba teaching Hospital in 1975. Abdulla was often invited to lecture at their Faculty and the younger generation of medical students attended some of Abdulla's famous lectures in the Faculty of Arts. Dr. Missawi, who went on to make a name for himself as a consultant in Medina Al Minawara, is one of the many, his book shows the fruitful result of this kind of cross-campus activity that Abdulla believed any great University should promote.

In this intriguing little book Dr. Missawi has chosen to link two very disparate men of Africa -both great and outstanding in their own ways – so different in their destinies and yet both sharing same enormous qualities of endurance and integrity.

Nelson Mandela is known to the whole world for his charismatic leading of South Africa out of the cruelty and darkness of Apartheid into a successful new nation of reconciliation and reconstruction .

Abdulla ElTayib is well known in the smaller but wide spread world of Arabic and Islamic academia and culture. Unlike Nelson

Mandela, Abdulla always steered clear of politics although he often wrote trenchant views about his country, the Sudan in its efforts to forge a new nation independent of colonial rule –part of the Arabic and Islamic "Umma" and yet straddling geographically the tropics to the equator with all the economic and ethnic complexities thus involved.

Cruelly Mandela was incarcerated as a political prisoner for 28 years in the prime of his life but he used this time well reading ,studying and praying, preparing for the time when ultimately his unique leadership would be needed

Because of his non-allegiance to any political party in the Sudan Abdulla was badly treated by all of them And he suffered many cruel and unjust set -backs in his career. Finally he was thrown out of work forced on to pension at the age of 55 by General Nimeiri Whereupon he was welcomed in Morocco where he was loved and appreciated by colleagues and students and by the late King Hassan and his son King Mohamed 6th.

But fortune smiles on patience and happily, both these great men were able to enjoy happiness, honors and success in the last decades of their lives and to contribute to the glory of their nations

Griselda El Tayib, Khartoum, Burri 27\10\05



الطيب وقريزلدا ، وفاء في وفاء حتى السوفاة



قرزيلدا الفنانة وعبد الله الطيب اللوحة

كلمة السيدة جرزيلدا الطيب

طوال فترة عمل البروفيسور عبد الله الطيب بجامعة الخرطوم و خلال فترته بعمادة كلية الآداب وإدارة الجامعة كانت له علاقات قوية ومقدرة مع هيئة كلية الطب وخاصة الأساتذة داوود مصطفى، حسن أبو بكر والنور عبد المجيد، الذين كانوا بمثابة أصدقاء العمر. هذه العلاقة الطيبة توجت في العام ١٩٧٥ بافتتاح مستشفى سوبا الجامعي. كثيراً ما كان البروفيسور عبد الله الطيب يلبي الدعوات لتقديم المحاضرات العامة بكلية الطب وذلك على مدى أجيال وعقود كما كان العديد من طلاب الطب يؤمنون بالمحاضرات العامة التي يقدمها بروفيسور عبد الله الطيب في كلية الآداب و من ضمن هؤلاء كان الدكتور هاشم مساوي و الذي يعمل الآن استشاري لعلم الأمراض بالمدينة المنورة، وكتابه هذا دليل على المبدأ الذين كان يؤمن به البروفيسور عبد الله الطيب وهو أن أي جامعة عظيمة يجب أن تكون متعددة النشاط وموسوعية التوجه.

في هذا الكتاب الصغير المثير ربط الدكتور مساوي بين رجلين من أفريقيا. ورغم الاختلاف بين الرجلين إلا أن كلا منهما كان عظيماً في مجاله وذا مقدرة عالية على التحمل حتى الوصول للغاية.

نيلسون مانديلا عرف على نطاق العالم بقيادته المؤثرة والفعالة لشعب جنوب أفريقيا والخروج بنجاح من ظلام التفرقة العنصرية والوحشية إلى رحاب المصالحة وإعادة البناء والتعمير.

عبد الله الطيب علم بارز في المجال الأكاديمي والثقافة العربية والإسلامية على نطاق العالم العربي والإسلامي. على خلاف نيلسون مانديلا كان عبد الله

الطيب دائماً يتجنب السياسة رغم بعض كتاباته التي تعكس وجهات نظره الحادة حول بلده السودان واستقلال شعبه ووضع الجغرافي والاقتصادي الخاص وتركيبته العرقية المعقدة.

عانى نيلسون مانديلا وطوال سبعة وعشرين عاماً من السجن القاسي إلا أنه ظل وطوال هذه الفترة الطويلة يؤهل نفسه بالدراسة والإطلاع مما جعله على استعداد متى ما احتاجت الأمة لقيادته الفريدة.

أما البروفيسور عبد الله الطيب فقد عانى كثيراً بسبب عدم ولائه السياسي وانضمامه لأحد الأحزاب السياسية كما أحيل للمعاش وهو لم يتجاوز الخامسة الخمسين من العمر، فذهب للعمل بدولة المغرب فكان محل الترحاب والحفاوة من قبل الأساتذة والطلاب بل ومن قبل الملك الحسن وابنه الملك محمد السادس.

وبما أن الصبر عاقبته الظفر فقد ابتسم الحظ أخيراً للرجلين واستطاع كل منهما أن يعيش آخر عقود العمر في سعادة و يهنأ بأمجاد أمته:

قرزيلدا الطيب

الخرطوم، بري ٢٧ أكتوبر ٢٠٠٥

من مانديلا إلى عبد الله الطيب

هذا كتاب ألفه الدكتور/ هاشم مساوي في التشابه بين هذين العلمين: نيلسون مانديلا وعبد الله الطيب. فكل منهما قد ملأ الدنيا وشغل الناس، كل في ميدانه، فكان مانديلا في القيادة والسياسة والكفاح حتى حرر جنوب أفريقيا وأهلها من العبودية التي فرضها عليهم العالم الغربي الأوربي، وكان عبد الله الطيب نابغة متميزاً في العلم والأدب واللغة في عصرنا هذا، لا يجادل في ذلك مجادل أو يشك شك.

ولعلك تعجب من فكرة هذا الكتاب فتسأل ما الذي يجمع بين رجل من جنوب أفريقيا وآخر من السودان.

فالظاهر أنك لا تجد شيئاً يجمع بينهما وذلك هو موضع العجب من الفكرة في هذا الكتاب فهو مدهش في فكرته حين تجد الكاتب قد عثر على تشابه بين الرجلين بالرغم من اختلافهما في اللغة والثقافة والبيئة والدين. ولكن سرعان ما ينقضي عجبك ويزداد إعجابك بما يعرض عليك من تماثل و تشابه بين الرجلين في وجوه كثيرة من الصفات والأفعال، في النشأة المتواضعة وفي إصرارهما على النجاح وفي سعيهما لبلوغ ما يريدان. وقد أشار المؤلف إلى حقيقة قد جمعت بين الرجلين كانت هي الباعث على التفكير في تأليف الكتاب واختيار الرجلين موضوعاً للكتاب. فإن المؤلف نظر إلى مسألة لا يمكن إنكارها جمعت بين الرجلين، تلك هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، تجدها في الأبيض الأسود فتقرب البعيد و يلتقي فيها الإنسان مع أخيه الإنسان مهما بعدت بينهما المسافات في المكان والزمان. وكان من هذه الفطرة الطموح والصدق والعزم والإصرار على

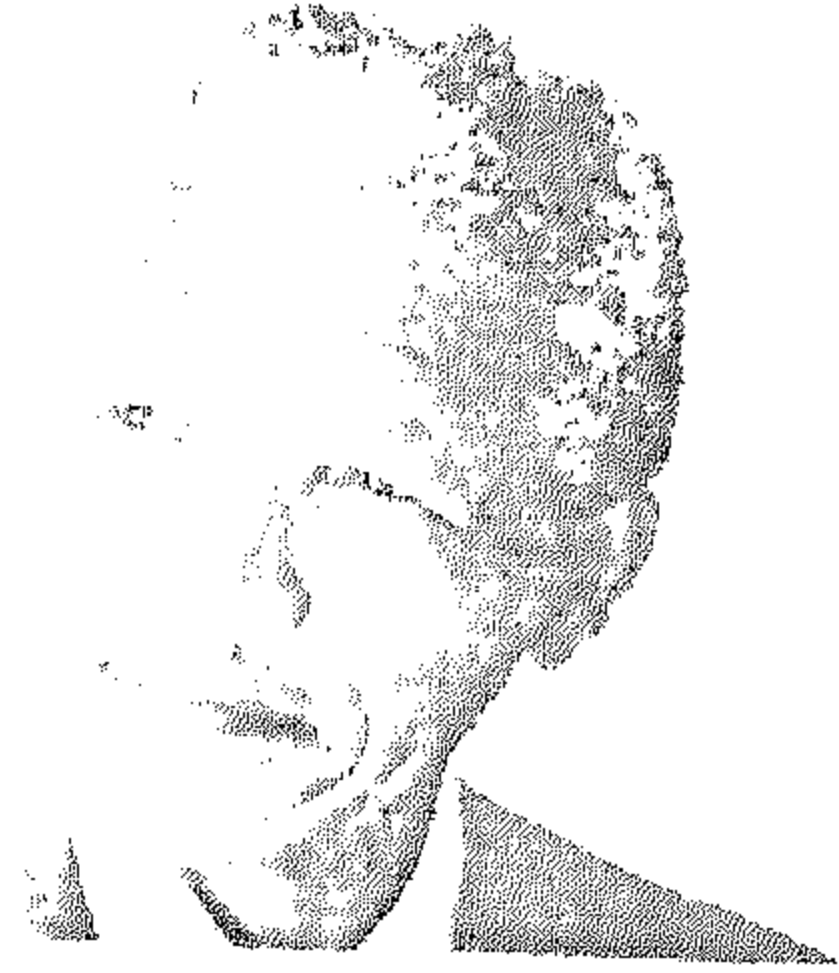
تحقيق النجاح في ما يصبو إليه الإنسان. إذن اتفق الرجلان في تلك الصفات. كان مانديلا يكافح ضد العنصرية والعالم الغربي كله ضده وانتصر مانديلا وحقق ما أراد لنفسه ولشعبه وكان عبد الله الطيب مثله يدافع عن اللغة العربية والتراث والحضارة الإسلامية في زمن كان العالم الغربي بأسره يشن حرباً على اللغة العربية والحضارة الإسلامية.

لقد أسعدنا المؤلف بأسلوبه السهل الممتنع و بالفكرة الذكية التي كانت مصدر شوق للقارئ كي يرى كيف كان هذا التشابه بين الرجلين الذي يراه بعيداً قد أصبح قريباً قريباً وممتعاً عجباً.

بروفسور/ إبراهيم الحارثو

كلية الآداب، جامعة الخرطوم

رخصتي الطويلة من أجل الحرية



سيرة في مسيرة ترجمت إلى
عشرات اللغات

نلسون مانديلا



بروفسير عبد الله الطيب
والكاتب ونقاشات مستفيضة
حول نظرية التطور ومواضيع
أخرى عام ١٩٨٨ .

من ماندلا الى عبد الله الطيب

كيف ولماذا

رحلة مع عظمة النفس الإنسانية مع إنسان عظيم من جنوب القارة الأفريقية وآخر عظيم من شمالها تشابهت حياتهما في أدق التفاصيل من شعور وجداني الى سلوك إنساني ومن سريرة طاهرة الى سيرة باهرة. وإن بدت في مظهرها مختلفة ففي مخبرها الكثير من التوافق بل وربما التطابق من الطفولة الى الكهولة. كل منهما قامة سامقة مثل بانات راما أصلها ثابت في أرض أفريقيا الطيبة وفرعها شامخ في سماء العالم على مدى قرن مشترك من الزمان. فالاثنتان من الشخصيات والنفوس التي استمدت قوتها من فطرة المجتمع الأصيلة الجميلة تفاعلت وتعاملت مع الحضارة الغربية الجلييلة أقوى وأعمق ما يكون التفاعل التعامل دون أن تتعرض الى أي ميل أو زيغ. والنفوس الكريمة تأسر الآخرين تؤثر فيهم أين و متى و كيفما وجدت.

القارئ الكريم و أنا أدعوك لمطالعة هذا الكتاب مع ما فيه من غرابة المشروع وطرافة الموضوع أرجو أن أشركك في الدافع للكتابة من النزوع إلى الشروع ... فمع ظهور الكثير من النزعات العرقية والتوجهات الإثنية التي شابت الفكر السياسي و ما ظهر من انحرافات قومية في هذه السنوات الأخيرة من عمر الوطن المديد بإذن الله و برزت الخلافات حتى صار كل ما بين الكتابة القراءة بصور السودان وهو يمر بمفترق الطرق و ظل هم الفرقة يخيم على سماء الوطن وأرض الموطن اعتراني ما اعترى الآخرين من بني وطني خشية الشتات في الأرض وتقلب الوجه في السماء و نازعتني إليه النفس بين الخوف

والرجاء فضربت بعرقى معهم بين الجذور إلى أرض الوطن نستمد له البقاء و لنا
الانتماء.

لقد ولدت و نشأت في بلدة سنار التقاطع المعروفة لأهل السودان
فهي سنار التي تسامحت فيها النفوس و تلاقى فيها عمارة دنقس وعبد الله جماع
وتلاقحت فيها السحنات الأفريقية والعربية و تلاحقت فيها سمات الغابة الصحراء.
وهي نفسها سنار التقاطع التي تلاقحت فيها خطوط السكة الحديد الأربع من جهات
السودان و ربما جهات أفريقيا الأربعة اشتهرت باسم سنار التقاطع، ترجمة الاسم
الذي أطلقه الإنجليز لمحطة السكة الحديد (Old Sinnar Junction) وهو ما يعني
ملتقى سنار القديمة ... فهي ليست مدينة كبيرة تتلاشى فيها الهويات و تنحصر كل
فئة في حي معين كما أنها ليست قرية بسيطة لا تعرف إلا جنساً واحداً ولا تألف
إلا نمطاً واحداً من أنماط الحياة بها مجتمعان مشكلان من كل أجناس
السودان، مجتمع متغير مكون من المسافرين الذين تزدهم بهم محطة السكة الحديد
وآخر ثابت تعمر به أحياء البلدة وجدت نفسي بانتساب تلقائي لمجتمع سنار
التقاطع الخليط و تفتحت نفسي و منذ الطفولة الباكرة على مجتمع من مختلف
السحنات و' الثقافات يعيش في وحدة طوعية طبيعية فطرية تصلح كأساس بيولوجي
و مراس فسيولوجي وتجربة علمية تتوحد على نسقها ليس دولة واحدة فحسب إنما
قارة بأسرها و ما زلت أذكر وأنا بعد طفل تلك المائدة الأرضية البسيطة
نحن نفترش بساط السعف البسيط (السباتة) لتناول أنواع الأطعمة المختلفة التي
تعكس الثقافات الأسرية المختلفة في الساحة التي تتوسط البيوت ... وقد ضم
المجلس أناساً كالمنتدبين من كل جهة و قبيلة ولمحة عابرة أذكر فيها تلك
الحلقة التي ربما جمعت في ذات الوقت الخليفة مساوي و خلف الله سعيد من ثنية

النيل الشمالية عند مروي وأبكر عثمان من جنوب دارفور ومصطفى الماظ من
أفارقة الوسط وكوكو تية من نوبة الجبال و محمد سيد باتا من نوبة الشمال
والطاهر حسن من سكان سنكات الشرق و إبراهيم دينق الجنوبي ... تلك
الساحات بين البيوت التي كثيراً ما شهدت مختلف النشاطات الفنية والثقافية
لمختلف المجموعات والقبائل عيال البقارة ورقصتهم مع النقارة وراقصي
الكمبلا من جبال النوبة والدقوف المصاحبة لإنشاد أولاد حاج الماحي والكثير
المتنوع مما يطرب النفس و يسبي معدد الآفاق من فنون من مختلف الطبائع
الأعراق تتباين في كل الأشياء وتبين في شيء واحد هو مكارم الأخلاق ... فقد
كان طرباً يتضمن رسائل متبادلة تمجد كريم الشماثل و مآثر المروءة والفضائل
بين مختلف القبائل

إني لطربني الخلال كريمة طرب الغريب بأوبة و تلاق
ويهزني ذكر المروءة والندى بين الشماثل هزة المشتاق
يتفتح الناشئ في هذه البيئة على وحدة التنوع و تنوع الوحدة و يكتسب
معيارية لقياس الفضيلة والجمال تتجاوز العدل إلى الفضل فيطربه النبل والفضل
أي كان مصدره أو جهته أو جنسه. لقد طربت حقاً و أنا أتأمل حياة هذين الرجلين
... عبد الله الطيب و نيلسون مانديلا وعجبت وأنا ألقى الكثير والعديد من
أوجه الشبه بين مجتمعيهما فجلبت بين جنابات هذا الكتاب ما أحسبه غيض من
فيض للكثير من العادات والتقاليد والقيم المتشابهة والتي يشترك فيها أهل أفريقيا
مهما بعدت عليهم الشقة أو باعد بينهم الشقاق.

وإن بدت مشاكل الوحدة السودانية كشئون داخلية إلا أن المعالجة الخارجية
كثيراً ما تنجح في مداواة العلل الداخلية، والترابط بين الدول الأفريقية والتماسك

بين شعوبها ربما وطد من دعائم التماسك السوداني كما تساعد الجبيرة المحيطة
بالجسم من الخارج في التئام الكسور العميقة بالداخل وأنا أزور جنوب
أفريقيا قبل عدة سنوات رأيت صورة "سنار التقاطع" ومجتمعها المشكل تتكرر لحد
ما في العديد من المناطق، فما أجدر بنا وقبل أن نصل إلى مفترق الطرق أن
نعود إلى ملتقى الطرق وتقاطع السكة الحديد من الجهات الأربعة في "سنار
التقاطع" ونرجع إلى ذلك المجتمع الفطري وتلك الوحدة الطبيعية حاملين بين
جوانحنا عبد الله الطيب و نيلسون مانديلا رمزاً لآمال القبيلة وأحلام الطفولة،
ونستشعر مع الشاعر الأديب محمد عبد الحي تلك الموروثات والمكتسبات العربية
الزنجية ونردد معه مقاطعاً من قصيدته الطويلة الجميلة "العودة إلى سنار":

ساعود إليك يا سنار

الليلة يستقبلني أهلي

أرواح جدودي تخرج من

لمضة أحلام النهر ، ومن

ليل الأسماء

تقصص أجساد الأطفال

تنفخ في رنة المداح

وتضرب بالساعد

عبر ذراع الطبال

ساعود اليوم ، ياسنار ، حيث الرمزُ خيطٌ ،

من بريق أسود ، بين الذرى والسفح ،

والغابة والصحراء ،

والشمر التاضج والجذر القديم .

لغتي أنت. وينبوعى الذى يأوى نجومى ،
وعرق الذهب المبرق فى صخرتى الزرقاء ،
والنار التى فيها تجاسرت على الحب العظيم
فافتحوا ، حراس سنار ،

افتحوا للعائد الليلة أبواب المدينة

"-بدوى أنت ؟ "

"لا" -

"-من بلاد الزنج ؟ "

"لا" -

أنا منكم. تائه عاد يغنى بلسان

ويصلى بلسان

هل ترى أرجع يوما

لابسأ صحوى حلما

خاملاً حلمي هما

لى دجى الماكرة الأولى وأحلام القبيلة

بين موتاى وأشكال أساطير الطفولة .

أنا منكم . جرحكم جرحى

ولوسى قوسكم .

التحروا للعائد الليلة أبواب المدينة

افتحوا الليلة أبواب المدينة

افتحوا.....حراس سنار

"

إنا نفتح يا طارق أبواب المدينة
"إن تكن منا عرفناك ، عرفنا
"وجهنا فيك : فأهلاً بالرجوع
"للربوع .
"وإذا كنت غريباً بيننا
"إنا نسعد بالضيّف ، نفديهِ
"بأرواح ، وأبناء ، مال
"فتعال

سنعود إليك يا سنار

The Dawn of Peace

A free translation of a selected extract from the Arabic poem

(The Return to Sennar) By Dr. Mohammed Abd_ El_Hai

My Sennar..!

At sunset ..!

Blinks in the homeland,

Of sacred revival anew .

And Winks in a bow ,

In a wound dyed blue .

In a horse with black manes ,

An' grass sparse; yet dew

In the leap of a leopard,

In blood opaque; but flew.

In a metal in the sun eyes,
With a scarlet ray as clue.
In stars with the marrow,
Of a spear on an epitaph,
Where martyrs souls just flew.
In a book shone with holy verse,
Where wisdom pearls brew.
In a minaret to spin lighter,
The spirits of the true.
In a spire to stick tighter,
Splinters of the pew.



قميص زاهي ووجه خير ديمقراطي



نه جديده تونس لاسييه



اتحاد طلاب جامعة الحرفه

رابطة طلاب كلية الآداب دورة ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ م

اسبوع البروفيسور عبد الله الطيبي (الأولى)

تتبعه - رينا فاسي - اجتماعات

تتبعه

مع لكون مؤخر حضوره في

معارض، محاضرات، اوراق علمية، دورات، تأسيسية، لقاءات، برامج توعوية،

في الفترة من ١٢/١٢/٢٠٠٤ إلى ١٧/١٢/٢٠٠٤

طفولة يتم فقر

ولد نلسون مانديلا على الأرجح يوم ١٧ يوليو ١٩١٨ بإقليم ترانسكاى فى قرية ميفنزو على ضفاف نهر أمباشى، وترعرع فى بيئة جميلة ساحرة، سماؤها كثيرة الغيوم كريمة المطر، تلالها ووديانها خضراء أجمل ما يكون وصفها عند الكاتب الكبير ألان باتون فى أشهر رواية من جنوب أفريقيا، أبك يا بلدى الحبيب. أما عبد الله الطيب عبد الله الطيب محمد أحمد محمد المجذوب الخ، فقد ولد يوم ٢١ يونيو ١٩٢١ بقرية الفقراء بالدامر الغربى، التميزاب، على ضفاف نهر النيل باسم واضح و كامل منذ البداية. يقول عن تسميته:

وسميتُ عبدَ الله وابنَ لطيبٍ

وكررهما وابنَ لأحمدٍ فانسبِ

وتاريخ ميلاد عبد الله الطيب كان محدداً لأن بيئته كانت بيئة علم معرفة وكان والده حافظاً للقرآن معلماً متعلماً خلافاً لوالد مانديلا الأمى و قرите الأمية. مانديلا عند ولادته كان يحمل اسم روهيلاهيلا مادييا ثم تغير بعد بضع سنوات ليكون نلسون مانديلا عند تعميده فى الكنيسة الداخلة حديثا على القرية، فقد اعتنقت أمه المسيحية على يد أحد المبشرين السود بينما ظل والده على ديانة آبائه القبلية. والدة مانديلا هى الزوجة الثالثة لوالده الذى كان يحب الزعامة و كان رئيساً للقرية (العمدة) و كان مقرباً لسلطان المنطقة (الناظر). والد عبد الله الطيب كان يعمل فى التدريس وتتنقل بين كسلا وأبى حمد وغيرهما كما كان عبد الله الطيب أيضاً ومن يشابهه أباه فما ظلم و كما يقول آخر:

و هل يبت الخطي إلا وشيخةً و تفرسُ إلا في منابتها النخلُ

فقد كل من عبد الله الطيب ومانديلا أباه في السنوات الأولى من الطفولة لتليها سنوات طويلة من اليتيم والفقر. قال ماندلا (عاد أبي يوماً الى كوخ والدي منهكاً وقد أصابه سعال شديد فتمدد على الحصير وطلب أن يوقد له غليونه بينما كان دخان الغليون يتصاعد كانت أنفاس أبي تخدم فمات وغليونه في فمه مشتعلًا). أما (سناريو) الخاتمة الحسنة فقد كان عند والد عبد الله الطيب، إذ بعد أن غادر الطبيب الأجنبي بسيارته وعبر بمركب (السلك) الى أتربة تجمع الرجال حول فراشه وهو يجود بروحه، وكانت لحظات تشييع الجثمان من يوم الثلاثاء ١٨ مارس ١٩٣٣ محفورة في ذاكرة الابن بكل تفاصيلها خاصة صوت (الخلفاء) الشجي وهم يرددون مقاطع (عليك اعتمادي) من قصيدة النور البراق من مآثرات الختمية، وهو من أعمق وأبداع مواجد النفس البشرية التي أعجب بها عبد الله الطيب، وهو أدري الناس بالشعر وقد ألف على نسقه نشيداً طويلاً، أسماه (برق المدد) بعدد وبلا عدد في أخريات أيامه، وكأنه كان يرجو أن ينال ما ناله والده، وقد تحقق رجاؤه فقد كان خلفاء الختمية يرددون مقاطع (البراق) و جثمان عبد الله الطيب يوارى الثرى في الخرطوم بحرى يوم الخميس ٢٠ يونيو ٢٠٠٣:

عليك اعتمادي دائماً كل لحظة
بدني في الرخا وفي كل شدة
وعند حتوف ارتجيك لموتى
لتحضرني تختم لي بالحسنى ختمة
تقر بها عيني إذ الروح تؤخذ
اللهم صلى وسلم على حبيب الله

ترتب على وفاة والد عبد الله الطيب أن فقدت الأسرة وضعا اجتماعياً واقتصادياً ظلت آثاره لسنوات.

و ما كان قيس هلكه هلك واحد و لكنه بنيان قوم تدمرا

فاضطرت الأسرة لإيجار منزلهم والسكن في دار جدهم عبد الله و بلغ بهم الأمر أن باعوا صحون النحاس وأقداح الدبكر، واضطروا ذات مرة لبيع شجرة بمبلغ ريال ونصف حتى يوفروا لابنهم مصاريف العودة للمدرسة. و لكن رغم معاناة الفقر التي يرونها عبد الله الطيب في مذكراته بتواضع العظماء فقد كان فقراً من نوع فقر آل عبد المطلب الذي يصقل النفس، و يعدها لدورها الكبير دون أن يقهرها و يجنبها في ذات الوقت ترف الغنى المطغى، والإشتغال بحسابات الدخل المنصرف كما هو الحال في الأسر التجارية. كما أنه لم يكن حرماناً في مجتمع الوفرة كالذي يعاني منه أهل هارلم في وسط نيويورك، ولكنه فقر يعم بجلاله معظم القرية وقد وصفه ابن بيئته ورفيق زمانه ومكانه الشاعر محمد المهدي المجذوب وهو يتأمله في بائعة الكسرة:

يا بائعة الكسرة ألقاك

الشاش الأبيض

بين يديك غمام

نامت فيه لفائفك الغناء

يا سمراء

الفقر تجمل

سمت من كبر وحنان

بصرني معنك

كان مانديلا، من الجهة الأخرى يقول إن للفقر فضائل، منها كونه محضناً
لأكثر العلاقات البشرية والصدقات وداً وإخلاصاً.

ولعل مما ضاعف من آثار فقد عبد الله الطيب لوالده أنه - بالإضافة لقوة
الإرتباط الأسرى في الحضارات العريقة فإن عبد الله الطيب كان أكثر التصاقاً
إعجاباً بأبيه الحافظ للقرآن، والشاعر والعاشق لجمال اللغة العربية.

و كان أبي يشدو القريض مجوداً

و يمدح مولانا الرسول محمداً

أيرجى بحبٍ شديدٍ مغرداً

و ينهى الى المجدوب من نسل أحمداً

له أنا في مدح النبي سأقتفى

أما مانديلا فقد تحول وضعه بعد موت والده نحو الأفضل إذ ذهبت به أمه
في رحلة طويلة سيراً على الأقدام الى بلدة أكبر، مثل الدامر، (فلا تبدو بداوتها لا
هي بندر)، ليواصل نشأته في كنف صديق والده السلطان الثرى فى رغد من
العيش مع زميل طفولته (جاستس) ابن السلطان المدلل. و يبدو أن موت والد مانديلا
لم يكن (بنيان قوم تهدم) وإنما (هلك قيس لوحده). و لما تقدمت بهما الحياة وشباً
عن الطوق تم ختانهما و أقران لهما فى حفل مهيب تكلم عنه ماندا بإسهاب فى
مذكراته وذكر كيف أنه تجلد لألم الختان، الشيء الذى أشار إليه عبد الله الطيب
أيضاً فى مذكراته و كيف أنه صرخ بكلمة (واع) حتى لا يقول (واى) تلك
الصرخة النسائية التى لا تليق بمقام الرجال. و فى حفل ختان مانديلا خطب أحد
الزعماء قائلاً: إن هؤلاء الشباب سيذهبون الى المدن ليعيشوا فى الأكواخ الوضيعة، و
يحتسون الخمور الرديئة، وسيعملون فى المناجم، و يتنفسون الهواء الملوث، ولا يرون
الشمس أبداً وستقطع رئاهم و يتقيئون أحشاءهم تنهراً أجسادهم.

كان مانديلا رغم حداثة سنه دائم الحضور لمجالس السلطان و وصف ذلك الوضع بالديموقراطية البسيطة فى القرية ولكنه انتقد غياب المرأة و تهميش دورها.

الديموقراطية فى الدامر كانت تلقائية ومضمنة فى الحياة اليومية. والمرأة كان لها دورها المستقل الواضح. فوالدة عبد الله الطيب كانت (أنصارية) مثل الكثيرين من أهل الدامر بينما كان والده (ختمياً) مقرباً من السادة وكانت جدته لوالده ختمية مثل الكثيرين أيضاً. كانت تلك هى الإتجاهات الأيدولوجية الموجودة، أما عبد الله الطيب نفسه فقد كان لقاحاً وحياداً إيجابياً بين الختمية و الأنصار: بداخله مؤتمر لعدم الإنحياز مع بعض الميول للقادرية. وكما وصف نفسه فقد كان فردى المزاج وربما صدت نفسه عن الأوراد المرتبة، والسמות المحفوظة، الطقوس الموضوعية، كان يسمع عمته تردد:

سورة البقرة للدارسين

وآية الكرسي للتحصين

كانت جدته هذه شخصية قوية مسموعة الكلمة، ذهبت معه الى مدير المركز المستر أنجلسون وأقنعتة بإلغاء سلفية البيت المستحقة على المرحوم والده، وكانت تشجعه على الدراسة. أما والدته السيدة عائشة جلال الدين فقد وصفها بأنها هادئة تكظم الغيظ و تعفو وتحسن العشرة و تطيب النفس. لا يستفدونها شر الناس الى الغضب، وشبه ذلك بوصف الملك لير لإبنته، بانها رقيقة الصوت خفيضة، زين النساء.

نفس الهدوء ذكره مانديلا عن والدته، وقد كان بها برأ حفيأ، وأشار الى أنهما لم يكونا يتبادلان الحديث كثيراً ووصف ذلك بأنه حب أهل الريف الصامت،

وهو محق إذ أن علاقات المدن تتسم دوماً بالدراما الصاخبة عكس الريف الهادي الذي يتسم بأنه (مجيد المهابة عميق الدروس).

عبد الله الطيب كان متديناً، و يستعين بالله على اليتيم والفقير. نيلسون مانديلا رغم أنه كان يذهب الى الكنيسة كل يوم أحد بصحبة السلطان إلا أنه، وكما ذكر بوضوح في مذكراته، لم يتخذ المسيحية عقيدة وإنما مذهباً سلوكياً، فقد كان الناس يقولون إذا أردت أن تكون متحضرأ فكن مسيحياً وإذا كنت مسيحياً فأنت متحضر. وبحكم صلته بالسلطان فقد كانت علاقته وثيقة بالقسيس الأفريقى المسئول عن كنيسة البلدة وكان على علاقة غرامية بإحدى بناته. طبعاً فى هذه السن المبكرة لم تكن لعبد الله الطيب أية علاقات مع الجنس الآخر وكعادة المجتمع السودانى آنذاك فأول علاقة حب هى الزواج، أما العشق فمكانه دنيا الشعر والخيال:

غسلت مهجتي بطهر سجايها

فلم ترض أن تهون و نشقى

سنة العشق فى بلادى كتمان

وبقىا على المحارم وثقى

أبيات من أشعار محمد المهدي المجذوب الذى نستصحبه معنا طوال سرد هذه الخواطر بحكم موقعه المكانى والزمانى والوجدانى من عبد الله الطيب وهو الذى أطلق على ديوانه الشعرى اسم نار المجاذيب، كما يصحبنا الكاتب ألان باتون ذلك الروائى الأديب من جنوب أفريقيا، كاتب رواية ابك يا بلدي الحبيب، بحكم موضعه الزمانى والمكانى والوجدانى من مانديلا ورفاقه، والذى ناهض التفرقة العنصرية التى لم تلائم ذوقه الفنان وحسه الفطرى الإنسان، فعانى الأمرين من بلى جنسه البيض. فإذا كان ألان باتون يمثل الإنسان الذى توافقت بداخله القيم الأوربية



المدرسة التي درس بها عبد الله الطيب المرحلة المتوسطة في بربر .



مكتب السكة الحديد بالدامر



يكتب للجامعة من القرية

البروفيسور
عبد الله الطيب



والفطرة الأفريقية فإن محمد المهدي المجذوب يمثل اتفاقية و توافق الغابة
والصحراء في حنايا وخلايا الإنسان السوداني. في الأدب السوداني تعني مدرسة
الغابة والصحراء تمازج الهوية الأفريقية والعربية. ضمت هذه المدرسة مجموعة
كبيرة من الأدباء والشعراء منهم على سبيل المثال بالإضافة لمحمد المهدي
المجذوب، محمد المكي إبراهيم، محمد مفتاح الفيتوري، محمد عبد الحي، (تلاحظ
وجود اسم محمد في غالبية شعراء هذه المجموعة)

كان نيلسون مانديلا كثيراً ما يلبي الدعوات لتناول الطعام المعد والمقدم
بطريقة أوربية في بيت القسيس. ولأنه كان لا يحسن استعمال (الشوكة) والسكين
فقد تعرض مراراً للسخرية ومر بمواقف حرجة أمام بنات القسيس، وهذه كانت
بدايات الإحتكاك بالحضارة الغربية، أقر فيها مانديلا بالهزيمة. وكأني أخال عبد الله
الطيب يمازحه مردداً بيت الشعر الذي أورده في إحدى كتبه:

و لو كنت عذريّ العلاقة لم تكن بطيناً و أنساك الهوى كثرة الأكل

مسألة الشوكة و السكين واجهت عبد الله الطيب أيضاً ضمن مجموعة
الطلاب، إذ كان الأساتذة الإنجليز يهاجمونهم في هذا الشأن و يعيرونهم لاستعمال
الأيدي التي تتعامل مع الأوساخ في الأكل، فكانوا يرددون عليهم بأن الماء يزيل كل
الأوساخ. كانوا يحتقرون (الخواجات) في هذه الناحية ويعتبرون أن نظافتهم
خارجية فقط وعلى حد تعبيره فإن ملابسهم الداخلية من تحتها عتك القدر والعياذ
بالله. و يذكر أن أول إضراب لطلاب كلية غردون كان عام ١٩٣١ طالبت فيه
الأجيال السابقة لعبد الله الطيب بأن يكون الأكل من الواقع السوداني. دافعوا عن
(الكسرة)، وذكروا انها خبز سوداني يعود تاريخها الى مملكة مروى. أكد ذلك عالم
الآثار الألماني هانز. ولفظة (كسرة) نفسها وردت في الهروغليفية المروية مثلما

أنها وردت في اللغة العربية فيما بعد، و ذُكرت في السنة النبوية. هذه وكثير غيرها من المواقف خرج منها عبد الله الطيب و زملاؤه مرفوعى الرأس. كما ذكر في هذا الصدد أن والدته كانت ماهرة في صناعة (الكنافة) و (المنين) وهى أطعمة ذات نكهة تركية، فعبد الله الطيب مسنود بحضارة صلبة كالصخر الناتج من تراكمات رسوبية على مر القرون.

كتاب عبد الله الطيب عن الأحاجى السودانية من أول مؤلفاته. كتب فى مقدمته: (الحمد لله و به نستعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم بعد، فقد كانت الجدات فى زمان مضى يسلين أطفالنا بُعيد المساء بحكايات مسائل من الأنس يقال لها (الحُجا) بضم الحاء وأصل ذلك من من الحِجا بكسرهما، وكان الأرب من هذه الحكايات شحذ الأذهان وإدخال السرور على نفوس الصغار ريثما يغلب عليهم النعاس، وفى ما يلى حكايات راعينا فيها الطريقة القديمة، وحرصنا على أن نحفظ بالكثير من عباراتها من أسجاع وما أشبه ذلك. والآن حين بدأ بعون الله و سبحانه نقول كما نقول الجدات و الأمهات فى الزمان القديم:

بحجيتكم ما بجيتكم

خيراً جانا و جاكم.

أكل عشاكم،

و جرى خلاكم.

ولعل من طريف المصادفة أن أول كتاب لنيلسون مانديلا كان أيضاً عن الأحاجى التى سمعها من أمه، و لكنه فقد مع ما فقد من مستندات صادرتها الشرطة العنصرية عندما داهمت منزله فى أورلاندو وست. عبد الله الطيب فقد وهو طالب فى المرحلة الوسطى حقييته فى حادث سرقة أثناء إحدى رحلاته المحلية وبها

الكثير من المخطوطات والمذكرات، المنظوم منها والمنثور، ومن أعز ما فقدته في هذه الحادثة دفتر كان قد ورثه من والده به الكثير من أفكاره وأشعاره فتألم لفقدته ألماً شديداً.

فترة ما قبل المدرسة في تلك المروج الخضراء والرياض الطبيعية في حياة ماندلا تقابلها الخلوة في فترة ما قبل المدرسة في حياة عبد الله الطيب.

بيئة الدامر شأنها شأن الحضارات القديمة القائمة على ضفاف الأنهار، كان لتأريخها كما لجغرافيتها الأثر الكبير في تكوين الشخصية، حيث ينتقل الإنسان - في ذات اليوم - بين ضفاف النهر حيث السواقي والبساتين والحدائق الغناء بين الصحراء و شبه الصحراء فلا يرى غير الرمال، أى أنه ينتقل بين بيئة أندلسية على ضفاف النهر ممعنة في الرومانسية والحلم الى أخرى صحراوية جافة مغللة في الجدية والحزم، كالتنقل عند عبد الله الطيب في نفس اليوم بين سلاسة ابن زيدون وخشونة الحطيئة.

نيلسون مانديلا قضى طفولته ووقتاً طويلاً من صباه قبل دخول المدرسة التي دخلت مع المبشرين، (كان التبشير قد دخل جنوب أفريقيا بعد دخول الإستعمار بقرون طويلة)، قضى مانديلا وقتاً في روضة أطفال مفتوحة على الطبيعة في بيئة خضراء غناء في مناخ مقابل لمناخ أوربا المطللة على البحر الأبيض المتوسط في جنوب الكرة الأرضية، ولو قدر للمسلمين الأوائل أن يكتشفوا جنوب أفريقيا لكانت أندلساً أخرى ولأفرزت أدب الخطيب الرقيق وفقه ابن حزم الدقيق، فالمسرح الطبيعي أكمل وأجمل، و لكن العزاء الوحيد كان في تلك الهجرات القليلة من مسلمي آسيا في القرون القليلة اللاحقة والتي أفرزت علماء ذوي سحنات آسيوية مثل ديدات و صحبه من مسلمي الأقليات الآسيوية المسلمة

المشابهة فى الدول الأفريقية الأخرى مثل زمبابوى، زامبيا، كينيا و يوغندا والأمل كبير الآن فى جهد جماعات التبليغ النابعة أيضاً من الهند وغيرها فى مواصلة نشر الإسلام فى ظل قصور و تقصير المسلمين من عرب اليوم.

و مع اللعب و اللهو تعلم نيلسون مانديلا مبادئ الزراعة و برع أكثر فى رعى الأبقار التى أكثر ما تكون فى هذه البيئات الغنية، أما الناحية الدينية فلم تكن عنده ذات بال، فبعد أن تحول من ديانة القبيلة السانجة والتى ليس بها عبادات للممارسة ولا نصوص للدراسة اعتنق المسيحية، وحتى المسيحية لم تكن تشكل عقيدة مؤثرة بالنسبة له وإنما مجرد مذهب ومظهر حضارى ليس فيه إلترام أكثر من الذهاب الى الكنيسة برفقة الوالدة أو كجزء من البرنامج الإسبوعى للسلطان.



جزء من مكتبة البروفيسور فى بيته
بالخرطوم .



القرية ، من لوحات
قرزيلدا الطيب

الكنيسة - المسجد - (المسيد)

الكنيسة ببنائها العالى الغريب، ومعمارها المتعالى المهيّب و درجاتها المرتفعة وموقعها المعزول في طرف البلد أكثر ما تكون رهبة وإرهاباً في النفوس، خاصة عند الأطفال إضافة إلى أن تراثيها مثل طقوسها عبارة عن طلاس صعبة الذكر عصية التذكر وحتى أكابر القساوسة لا يحفظون نصوصها. بينما المساجد والخلوى المرفقة بها كما في بيئة عبد الله الطيب تكون في وسط البلد محلاً للإلفة ورفع الكلفة والتعامل البسيط بينها وبين الجميع كباراً و صغاراً. فالمسجد أو (المسيد) ليس له عتبات ولا درجات مرتفعة وأبوابه موطأة الأكناف ساحاته مفتوحة طيلة أيام الله السبعة. والنصوص، وعلى رأسها القرآن سهلة الحفظ ميسرة الذكر لكل مذكر. والمذاكرة تسودها روح الجماعة، وارتفاع أصوات الدارسين والشيوخ حول نار (التقابة) الساطعة التي تفوق (بالفولت والأمبير) أضعاف إضاءة شموع الكنيسة الخافتة المتفرقة. و بكل المقاييس فإن الكنيسة أقل التحاماً بالبيئة و يميل تصميمها المعماري إلى الصمت والعتمة الارتفاع إشارة الى عالم آخر. وغالباً ما تكون محاطة بالمقابر وعندما يدخل الناس إلى الكاتدرائية فإنهم يتركون الحياة وراءهم كأنهم يدخلون عالماً آخراً. خلافاً للمسجد الذي تمارس فيه أعمال الدين الأساسية كالصلاة والذكر والتعليم التعلم الدعوة وغالباً ما يناقش فيه الناس أمور دنياهم التي فيها معاشهم فور فراغهم من الصلاة والدعاء بإصلاح آخرتهم التي إليها مآلهم. الخلوة كما أنها قريبة الموقع فهي أيضاً أقرب للواقع ، فالطفل كما يتدرج في الحفظ مع تدرجه في النمو والارتقاء يتدرج أيضاً في

اكتساب المهارات الحرفية بدءاً بجمع الحطب لنار القرآن بطريقة تدريبية وانتهاءً بتعلم الحرف كممارسة الزراعة، مما يوفر القوت للخلوة ويؤهل الدارس للسعي في الأرض والابتغاء من فضل الله. فالخلوة تربط بين إصلاح الدنيا التي فيها المعاش وإصلاح الآخرة التي إليها المآل مما يسهم في إحساس الإنسان منذ الطفولة ببساطة الحياة. فهي ربط بين الدين والدولة في الشعور لا في الشعارات، وممارسة تلقائية سلسلة لهذا المبدأ. كما أن إنشاء الخلوة لا يكلف معشار ما يكلفه معمار الكنيسة رافعة ومطبقة شعار (بناء الإنسان أهم من بناء الحيطان)، فمحورها هو النفس الإنسانية تهية لها عباداً صالحين لتدخل فيهم حتى ترجع إلى ربها راضية مرضية.

يذكر الشاعر محمد المهدي المجذوب أيام الصبا و دراسة القرآن في
(الخلوة) في قصيدة مخاطباً فيها عبد الله الطيب:

أتذكر ناراً أوقدت عند خلوةٍ عشاءَ تغنى بالكتاب المرتل
و أرجها الخيران حتى تلفت و ألفت على الألواح أنظار أجدل
و يرقبنا شيخٌ على كل قاريءٍ له أذنٌ تحصى حروف المرتل
و نصدح بالإنشاد في ظلٍ خاشعٍ مضيءٍ العشايا ذاكرٍ متبتلٍ

ورحم الله التجاني يوسف بشير، ما أجمل تصويره للخلوة في وجدان
الصبا الغض.

حبذا خلوة الصبي ومرحى بالصبا الغض من ليالٍ وضاح
ضمخت ثوبه الدواة وروت رأسه من عبرها الفواح
وظلالٌ من الضحى ظفرت منها بعقدٍ من الصبا لمح
فارجحت مهوماتٍ وما تبرحُ مركوزة على الألواح

أثناء فترة الخلوة، بالإضافة للدراسة وممارسة هذه الحرف المصاحبة، فقد مارس عبد الله الطيب هواية نسج الأسرة (العناقريب) واتفقها حتى صار يتفنن في مختلف أنواع النساجة من دنقلاوى، وسجادة وغيرها من أنواع النساجة، وقد أفاد أهله من هذه الناحية. عبد الله الطيب يقول أن كلمة (عنقريب) - سرير - أصلها سامي حميري. ويقول أن أول من دُفِنَ على عنقريب (نعش) من أهل الإسلام سيدتنا أم المؤمنين زينب بنت جحش. أشارت بحملها عليه سيدتنا أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، قالت رأت النعش بأرض الحبشة التي هاجر إليها الصحابة سيدنا جعفر وسيدنا عثمان ومن معهم. وفي رأيه أن المقصود بأرض الحبشة هنا هي هذه البلاد (السودان) لا بلاد أكسوم وقنذار لأنهم لا يحملون الميت على العنقريب.

مانديلا ذكر أنهم كانوا ينامون على الحصير في أكواخهم، وهو ما يعرف عندنا (بالبرش). مرفق بين طيات هذا الكتاب صورة لبروفيسور عبد الله الطيب وهو مستلقي على برش ويراجع بعض دراساته الجامعية في بيتهم بقرية التمراب.

في أفريقيا يستهوي التبشير المسيحي الأطفال وصغار الشباب ببريقه الحضاري وارتباطه بالعالم الأوربي المتقدم تقنياً ولكن سرعان ما تتحول المسيحية

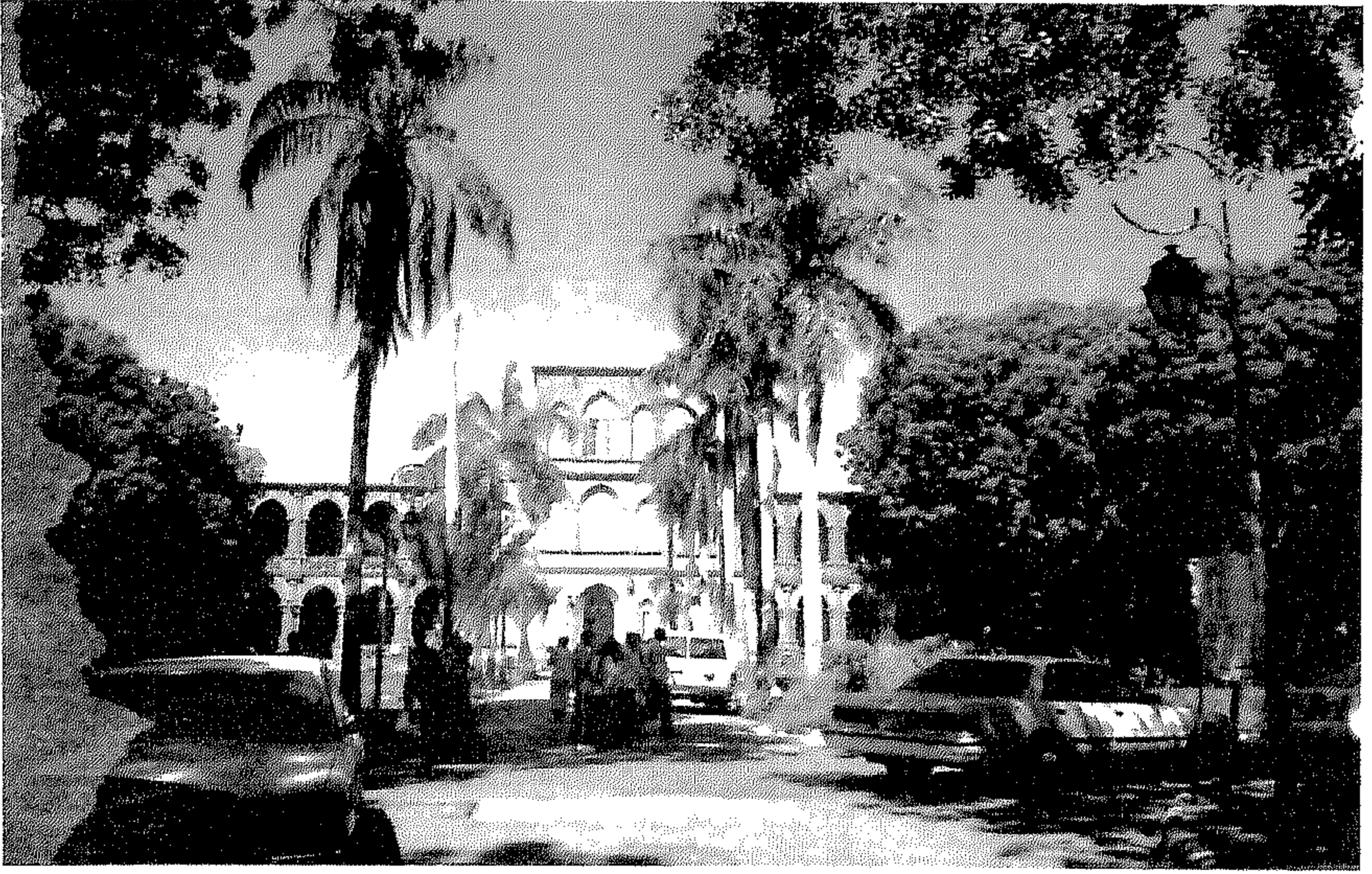
عند الكبار إلى مظهر مذهبي وقالب اجتماعي دون اعتقاد قلبي أو يقين داخلي، كما صرح بذلك مانديلا مراراً و تكراراً، ومن علامات ضعف الاعتقاد القلبي سخريته وهو يقول: عندما أبعث في الدار الآخرة فسأبحث عن أقرب فرع للمؤتمر الوطني الأفريقي.

ومجمل القول أن نشاط الكنيسة لا يتماشى مع بساطة الحياة في أفريقيا كما هو الحال بالنسبة للمسجد وذلك للرسمية التي يمارس بها النشاط الكنسي مقارنة بعفوية وبساطة نشاط المسجد.

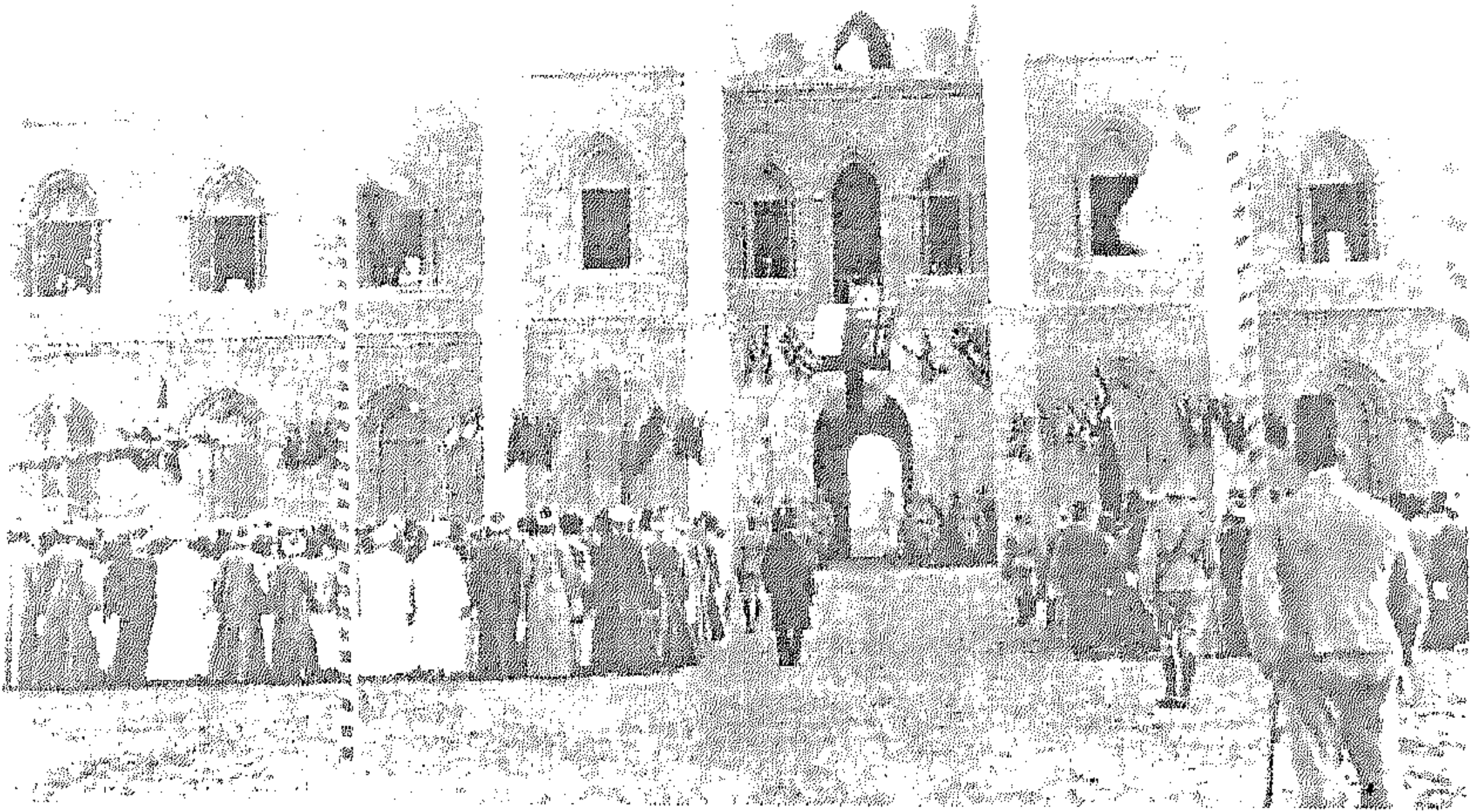


مؤلفات عبد الله الطيب في معرض للكتاب





جامعة الخرطوم بين عام ١٩٠٢ وعام ٢٠٠٢



(٤)

المدارس:

التعليم سلاح الحرب والسلام

قبل بداية الدراسة بالسنة الأولى ابتدائي والتي كانت بكسلا عام ١٩٢٩ كان عبد الله الطيب يعرف القراءة و الكتابة و يحفظ جل القرآن إن لم يكن كله، ومن رأيه أن أفضل طريقة لتعلم اللغة العربية هي القرآن، و يدعم رأيه هذا بما ورد في مقدمة ابن خلدون في باب تعليم الولدان، و ليست كتب الأطفال التي أصر على وضعها مستر سكوت دكتاتور السياسة التعليمية إبان الاستعمار.

التعليم الأوربي في جنوب أفريقيا أقدم منه في السودان و معهد كلاركبيرى الذى درس فيه مانديلا تأسس عام ١٨٢٦ بينما تأسست مدرسة الدامر الابتدائية عام ١٩٠٥. و لكن التعليم فى السودان بصفة عامة قديم و يرجع إلى فترة دخول الإسلام السودان.

مانديلا ما تناسى وما تعالى أن يكتب فى مذكراته فرحته بملابسه الحضارية الجديدة بمناسبة دخول المدرسة وكيف أنه ظل طوال الليل يلمع ذلك الحذاء الأوربي الذي أهده له السلطان. وحكايات مانديلا مع الأحذية طويلة منها تالد و طريف فقد ذكر أنه و طوال فترة السجن كانوا يستعملون الأحذية المصنوعة من إطارات السيارات (تموت تخليه) ثم ذلك الحذاء الذي أحضر له مع نهاية المفاوضات وقبيل التوقيع مع آخر رؤساء العهد العنصري دو كلارك، وكيف أن أحد الوزراء تولى إصلاح رباط الحذاء بنفسه. عزّ وذلّ مرتبط بإيتاء الملك أو نزع و عبر في سيرة مانديلا بين سجن روبين وقصر بريتوريا في جنوب أفريقيا بها نفحات من تلك المعاني المنسابة في آيات القرآن بين سجن يوسف وقصر

العزیز فی شمال افریقا. و فی مصر ایضاً قصة لمانديلا مثل قصة حذاء سندريلا وذلك عندما احتشد الآلاف للاحتفال بمانديلا عند زيارته للقاهرة وانفلت ذمام الأمر فانخلع الحذاء من إحدى قدميه فتابع البرنامج وألقى خطابه وهو ينتعل فردة حذاء واحدة. أما آخر طرائف مانديلا مع الأحذية فهو تعليقه الساخر عندما ظهر في احتفال كبير برفقة الممثلة الأميركية الشهيرة وتي هوستون فقال للجمهور: إنما أنا هنا لألمع حذاءها. عبد الله الطيب ذكر حذاء (باتا) المصنوع من القماش والجلاباب الأبيض البسيط الذي ظل اللبس السائد حتى في كلية غردون.

كان معهد كلاركبيرى يعادل المرحلة الوسطى بمدينة بربر في حياة عبد الله الطيب. مدينة كلاركبيرى تتفوق على بربر في جغرافيتها الطبيعية، فالمناخ معتدل مع ميل الى البرودة والغطاء النباتي عبارة عن حديقة جميلة. بينما تتفوق مدينة بربر بجغرافيتها البشرية و يبدو أن جمالها ارتكز في الذات الإنسانية، فتلاقت فيها الطرق الأفريقية من وإلى الحجاز ومصر وتلاقحت بها الثقافات المختلفة. يذكر أن (الآبرى) الحلو مر - ذلك المشروب السوداني المحض - قد أخذ تركيبته النهائية في مدينة بربر، والذي يتذوقه يدرك من الوهلة الأولى أنه قادم من فج حضارى عميق. و بربر ورصيفتها سواكن كانتا في مذهبهما شافيعيتين دون سائر مناطق السودان الأخرى المالكية.

المدرسة الابتدائية والوسطى في حياة مانديلا كانت إضافة وبعداً حضارياً في كل الأحوال، في مقابل بداوة القبيلة و دينها الوثني البدائي. أما في حالة عبد الله الطيب فقد بدأ وظل التعامل مع التعليم الأوربي الحديث بتوجس حذر يتوخى الناس فيه الإفادة من التدريب والمحافظة على التربية، ورغم بهرج المدرسة وما تعود به من رقى على مستوى الفرد والمجتمع وتحسين الوضع المدني والتقلي فإن

حرص الأهالي على الناحية الدينية كان أشد، "و من يحرز ثميناً يبخل"، بينما كانت الدراسة المختلطة والسلوك الأوربي في المأكل والملبس، والمنشط والمكره هو طابع الدراسة في كل المراحل عند مانديلا. ورغم ذلك كان عبد الله الطيب يتكلم عن التفريط في النواحي الدينية في المدارس والجامعة وكأنها أعدت لترك الصلاة وتخريج جيل من الأفندية متساهل في التزامه الديني، فعبد الله الطيب قليل مثله هدية ثمينة ونفحة من نفحات المساجد والخلاوى والمسجد لدنيا المدارس والجامعات ومنازة علمية وفقت بين الخدمة المدنية والنزعة الدينية والصالح الأكاديمي. تفوقه وحفظه المبكر للقرآن والدروس الدينية كان قميناً أن يجعل منه شيخاً مستقلاً بخلاويه ومسيده وأتباعه بالطريقة التقليدية، ولكن مشيئة الله قدرت أن يكون شيخاً حديثاً و أكاديمياً عصرياً وعالمياً تنساب بركاته عبر وسائل التعليم الحديثة مجالات البحث العلمي والإعلام. و كثيراً ما كان بروفيسور عبد الله الطيب يتعرض من خلال كتاباته وأقواله للمسائل الدينية و يعرضها بطريقة أدبية وبأسلوب بليغ بعيد عن روح المباشرة وبطريقة تفي بالغرض. كان على علم وعى بعصره وتراثه، وكما وصفه أحد الكتاب بأنه (فقيه في ثوب فنان) ووصفه آخر بأنه تقدمي يدعى الرجعية. أسلوب بروفيسور عبد الله الطيب السهل الممتنع في تفسير القرآن في ذلك البرنامج الخالد عبر السنين من برامج الإذاعة السودانية وبمعية أداء وصوت الشيخ صديق أحمد حمدون الندي، لهو أسلوب سهل الفهم للعامة ممتنع عن الوصف حتى للخاصة.

من مقترحات بروفيسور عبد الله الطيب لوضع خطة و إستراتيجية لمنهج التعليم في الجامعة يلاحظ حرصه على الثقافة الإسلامية واللغة العربية في كل كليات الجامعة. فقد اقترح ما يلي:

أن يدرس طلاب كلية الآداب القرآن الكريم مع حفظ ربع القرآن، بمعدل جزئين كل عام بالإضافة للنصوص العربية القديمة. دراسة معلقات الشعر كلها مع باب من الحماسة وباب من المفضليات وأمثالها. وفي النثر أقترح دراسة مقدمة صحيح مسلم، اللؤلؤ والمرجان، مقامات الحريري، جمهرة من خطب العرب، سيرة ابن هشام، جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت. في النحو أقترح لطلاب الآداب دراسة مغنى اللبيب لابن هشام وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. بالإضافة لوضع القاموس المحيط بين يدي الطلاب وغيره من أمهات الكتب كالمفضل والخصائص والصناعتين. يقرر على طلبة الكليات الإنسانية والاجتماعية دراسة نصوص عربية قديمة، كلٌ وما يتناسب في مجاله كمقدمة ابن خلدون وإحياء علوم الدين ورحلات ابن جبير وابن بطوطة في الجغرافيا غيرها. ويقرر على طلاب الكليات المهنية ما يناسب طبيعة دراستهم كتاب القانون في الطب لابن سينا وكتاب ابن ميمون في الهندسة ونحو ذلك في سائر الكليات والأقسام. وذهب عبد الله الطيب في مقترحاته هذه حتى غطى مرحلة الثانوي والأساس.

عاصر عبد الله الطيب وعایش سجلات من المصادمات الفكرية والثقافية بين المعلمين الإنجليز والمتعلمين السودانيين تميزت بمقاومة من قبل الشباب مسلوذة بروح الدين لمواجهة الدماء الاستعماري العجوز. وقد كان الاستعمار الإنجليزي يحسب ألف حساب للناحية الدينية عند السودانيين. نمازج من الاساتذة الجهابذة يذكرهم عبد الله الطيب، مستر هانكس صعب المراس، مستر جانسون البدين، مستر ويلمز فارع الطول، مستر براون الذي كان يساير الطلاب، وكيف أنه وقف معهم بخشوع يحيون السيدة مريم عند زيارتهم لشرق السودان، أما مستر سكوت، أهم رجل في مجال التعليم فقد كانت له معه وقفات طويلة، فهو أساساً

أرسل إداري و لكن ذكاه انتقل به من السياسة إلى حقل التعليم — حسب تعبير عبد الله الطيب — وهنا تظهر لمحة من نظرة عبد الله الطيب للسياسة وزهده فيها. ومستر سكوت هذا كانت له مساجلات ومناقشات كثيرة وطويلة خاصة مع الطلاب المتدينين. وكان كلما أحس بالهزيمة أخرج سلاحه الفكري واتهمهم بالإرهاب — الاتهام بالإرهاب فكرة قديمة وثقها عبد الله الطيب في مذكراته منذ الأربعينات في القرن الماضي.

في هذا الجو نشأت فكرة مؤتمر الخريجين و تحولت من أفكار كامنة في نفوس الطلاب الى حركات تحررية عند الخريجين ومن ثم إلى الشارع السوداني. المؤتمر الوطني الأفريقي، التنظيم الأساسي في حركة التحرير في جنوب أفريقيا جاء من الشارع إلى الجامعة والمتعلمون الذين اتسموا بالهزيمة الثقافية الاستسلام للتفوق الحضاري كانوا من أواخر المنضمين إليه بعد عمال المناجم عامة الأفارقة. فلذلك ظل الصدام المسلح هو الطابع الوحيد للنضال حتى أدرك مانديلا ورفاقه أهمية التعليم كسلاح في مواجهة العدو فطغت لغة الحوار النضال السياسي و إشراك المجتمع الدولي لتكون النهاية متشابهة في المسيرتين وكما أعلن استقلال السودان من داخل البرلمان بعد مفاوضات تصعدت حتى أعلى منابر الأمم المتحدة، كذلك كانت نهاية حكم الأبارتيد والتفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا عن طريق صندوق الانتخابات والبرلمان. عندما شعر الاستعمار بخطورة التعليم وسط الأفارقة حاول الحد منه وتعطيله بطريقة غير مباشرة وذلك عن طريق فرض رسوم عالية مما حدا بالمؤتمر الوطني الأفريقي لمعارضة ذلك الأمر فاندلعت مظاهرات مشهورة مات فيها الكثيرون من الأفارقة. نفس الشيء حدث في السودان حيث عانى عبد الله الطيب من جراء ذلك و كاد أن يترك الدراسة ولكن كثيراً ما

كان تفوقه الأكاديمي شفيحاً له لكي ينال إعفاءً من مثل تلك الرسوم الجبائية والتعجيزية. وتكاد لا تخلو مذكرات أي مفتش أو إداري في حكومة السودان أثناء الاستعمار من بعض التضجر والضيق ذرعاً من — (الأفندية) الرجال الجدد — أي المتعلمين السودانيين، وميله بالتالي إلى الإدارة الأهلية و زعامات القبائل من عمدة وشيوخ.

لم يعمل مانديلا مباشرة في حقل التعليم كما كانت مهنة عبد الله الطيب ولكنه كان يركز على أهمية التعليم و يقول أن التعليم هو أعظم محرك للنضوج الشخصي فهو الذي يجعل ابن عامل المناجم رئيساً للمناجم و يجعل من ابن المزارع رئيساً للدولة. التعليم هو أهم ما يمتاز به الفرد والمجتمع من إمكانيات، وبرؤية فلسفية عميقة يذكر مانديلا أن الإمكانيات وعلى رأسها التعليم أهم من الممتلكات، وكأنه يقرأ التجربة الحالية في دول الخليج التي ما زالت قليلة الإمكانيات رغم كثرة الممتلكات.

وبينما كانت التفرقة العنصرية والاستعباد الدافع الأساسي للتحريض في جنوب أفريقيا كان الاستعمار الإنجليزي في السودان مقارنة بجنوب أفريقيا خفيف الوطأة وكان الإنجليز أقرب ما يكونون للخبراء الأجانب العاملين في المشاريع الحكومية المختلفة كالسكك الحديدية وإقامة السدود وتنفيذ المشاريع الزراعية الضخمة، وكانت كرامة الإنسان السوداني وخاصة المرأة في حفظ ومنعة بضل القيم المستوحاة من الدين وظلت محاطة بالخطوط الحمراء التي لم يتجاوزها الإنجليز طيلة فترة الاستعمار.

ولعل من الأشياء المهمة والتي يجب ذكرها هنا أن نيلسون مانديلا القائد التاريخي لأكثر مسيرة عرفت عبر التاريخ ضد التفرقة العنصرية هو نفسه كان

عنصرياً، وأن العلم و التعليم وبالتحديد التحاقه بمعهد كلاركبيرى هو الذي غير من شخصيته العنصرية، يسترسل قائلاً عن هذه المرحلة: كنت أحس أن أصولي العرقية هي منبع قدرتي و قيمتي في الحياة. وكنت سأصبح مستشاراً لملك التيمبو، من قبائل الكوسا وكنت اعتقد بأن كوني من التيمبو هو أكثر ما يحسد عليه الإنسان في هذه الدنيا وأنا نحن أبناء الكوسا هم شعب الله المختار. والمتأمل في ملامح مانديلا يلاحظ ثمة اختلاف بينه وبين بقية الزنوج الأفارقة، وقد أثبتت بعض الدراسات الأنثروبولوجية أن أصله الإثني ينحدر من سلالات آسيوية، إذ ورد في كتاب الإنسان في الشتات لمؤلفه سفورزا والذي ترجمه للعربية الدكتور منتصر الطيب أن الكوسا أو (الخوسا) حافظوا خلال التاريخ على لغتهم والتي هي بلا ريب لغة غاية في القدم والتميز بما تتضمنه من تلك الطقطقات المتنوعة الصعبة التردد هذا فضلاً عن التقاسيم المميزة لوجوههم الأشبه بالآسيويين. ونفس الكتاب ورد فيه أن العنصرية أو العرقية مرض عضال لا يمكن استئصاله بسرعة و يسر وأن التعليم هو أهم وصفاته العلاجية، ويشير إلى أن الانصهار الوراثي إذا كان يمتضى بمعدلات بطيئة فإن الانصهار الثقافي يمتضى بصورة أسرع، و يؤكد أن السلاح النهائي الأكثر مضاءً ضد العرقية هو سلاح التعليم رغم بطئه، وهذا صحيح، ولكن ثمة طرق أكثر اختصاراً للكورس العلاجي و ليت كلاً من سفورزا ومانديلا يعرفها في ترتيل سورة الحجرات و لو لمرة واحدة. (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣)

فالعنصرية كانت ملازمة لماندبلا. حتى في بدايات عمله السياسي فقد كان أشد أعضاء المؤتمر الوطني عنصريةً وكان ضد انتماء أي من البيض أو الملونين من الهنود لذلك التنظيم. ولعل من الملاحظ أن هذه المراحل سواء كانت على مستوى الفرد كماندبلا الذي نصعد و نرتقي مع نموه و نضجه الإنساني أو على مستوى الجماعة كما في المؤتمر الوطني الأفريقي هي نفس المراحل التي كان يمر بها مالكوم إكس وجماعة أمة الإسلام في أمريكا الشمالية. إذ لم يغير مالكوم إكس من نظرتة العنصرية للرجل الأبيض وعلاج الداء بداء آخر إلا بعد رحلتة الشهيرة للحج في بداية الستينات من القرن الماضي حينما لاحظ ذلك التجمع الواحد الموحد خاصة في عرفات وفطن إلى أنه لا فضل لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى. الجدير بالذكر أن مالكوم إكس والذي نحسب أنه قد أريد به خيراً قد تأثر كثيراً في هذه الرحلة بأحد مرافقيه وهو الداعية السوداني أحمد حسون والذي كان يعمل مترجماً لمنظمة الدعوة الإسلامية بجدة حين اصطحبه معه إلى أمريكا، تقول المصادر أن بشرته كانت أكثر سواداً من مالكوم إكس، ظل مرافقاً له يشد من أزره وينشر معه أفكاره التصحيحية هذه حتى لحظة استشهاده حيث صلى على جنازته. لقد أخذ هذا الداعية السوداني بعداً عالمياً نظراً لثقافته الواسعة و إجادته للغتين العربية والإنجليزية إضافة لتوافق الغابة والصحراء داخل وجدانه المتوازن. زار مالكوم إكس السودان مرتين الأولى بعد الحج عام ١٩٥٩ والأخرى عام ١٩٦٢ قدم فيهما العديد من الندوات والمحاضرات وقابل الرئيس ابراهيم عبود كما خاطب المؤتمر الأول لمنظمة الدول الأفريقية عام ١٩٦٤ بالقاهرة مركزاً في خطابه على أهمية دعم أفارقة الشتات في أمريكا لقضايا التحرر في أفريقيا، كما أكد على الدور الحيوي الذي يلعبه الأرقاء المسلمون السود

في أمريكا لتحرير الإنسان الأسود هناك والعودة لربطه بالقارة الأم. بالإضافة لتأثره بأفكار أحمد حسون فقد ورث مالكوم إكس عن والده العديد من أفكاره الممتدة من ماركوس قارفي الزعيم الأسود، والذي تأثر هو بدوره بمحمد علي السوداني، ومحمد علي هذا تذكر المصادر الأميركية أنه مسلم أفريقي قدم لأمريكا من السودان و بالتحديد من قبيلة الزغاوة وأنه كان الأب الروحي للعديد من مسلمي أمريكا ذوى الجذور الأفريقية ولا غرو أن اتخذ الكثير منهم اسم محمد علي تيمناً به و على رأسهم محمد علي كلاى بطل الملاكمة المعروف. بالمقارنة مع مسيرة النضال للزنوج في جنوب أفريقيا وفي أمريكا فإن المتأمل في النزاع الشمالي الجنوبي في السودان يلاحظ غياب أو ندرة ذاك النوع من التسامح المكتسب عبر السنين والذي تجسد في نماذج بعينها مثل مالكوم إكس و نيلسون مانديلا في الناحية الجنوبية من القارة الأفريقية، وربما يعزى ذلك إلى ندرة ما يقابلهم في الناحية الشمالية من نماذج أمثال أحمد حسون و محمد علي وساتي ماجد والشيخ صديق الذي أسلم على يديه العديد من الأمريكان السود مثل تاييسون الملاكم سراج وهاج الداعية الأمريكي الشهير وإمام مسجد بروكلين بنيويورك وغيرهم من الدعاة السودانيين الذين وردت أسماؤهم في أدبيات ذلك النضال، وبروز زعماء وسياسيين وقادة إسلاميين لا يعرفون معنى لكلمة الجهاد سوى القتال، فظلت مشكلة الجنوب و أحداثها و لسنين عدداً محصورة فقط في الفعل و رد الفعل دون النظر إلى التسامح الذي ساد العلاقة بين السودانيين و السود في أمريكا وغيرها.

لأول مرة في حياته وأثناء مرحلة الدراسة في كلاركبيرى يصافح مانديلا يد رجل أبيض وهو القسيس هاريس مدير المعهد. و هي ذات المرحلة التي تأثر

ففيها مانديلا بأستاذه الأسود ماهلاسيلا الذي لم يكن يخشى مدير المعهد ولا غيره من البيض بصفة عامة وسلاحه الوحيد هو العلم.

بعد إغلاق مكتب مانديلا للمحاماة بسبب نشاطه السياسي تلقى مساعدات مالية من زملاء المهنة حتى من أولئك المحامين البيض الموالين للحزب الحاكم وقال مانديلا معلقاً على ذلك لقد أوضح لي ذلك التضامن أن الانتماء المهني والعلمي يفوق الانتماء العرقي حتى في جنوب أفريقيا العنصرية. ومن مفارقات ما يذكر مانديلا أنه رأى ذات مرة شحاذة بيضاء تسأل الناس فرق لها قلبه وتألّم لحالها جداً وعلل ذلك بأن منظر الشحاذين الأفارقة كان شيئاً مألوفاً.



مانديلا الشاب وخلفه لوحة كتب عليها بالعربي
(ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) .



(والتقينا في طريق الجامعة)

جامعة هيلدتاون تعادل كلية غردون، ومديرها المهيب مستر ولنجتون أشبه ما يكون بمستر سكوت أو مستر قريفيث في السودان. الصراعات الفكرية والمعارك الثقافية بين البيض والأفارقة في جامعة هيلدتاون حيث الإستسلام الفكري والخضوع الثقافي، لم تكن بذلك المستوى في كلية غردون. وذكر مانديلا أنه وزملاؤه في الجامعة كانوا يعتقدون أن الرجل الأبيض هو المثل الأعلى في السلوك والأتوكيت وغاية ما يطمع فيه و يطمح إليه أحدهم هو أن يكون جنّلمان أسود.

وصف جميل لمباني جامعة هيلدتاون أضخم وأفخم جامعة أفريقية جنوب خط الإستواء، أفاض فيه نيلسون مانديلا ذاكراً معمارها ذا الطابع الاستعماري المهيب و منظر الساحات الخضراء والأشجار الضخمة وأوراق اللبلاب التي تغطي المباني. قريب من هذا الوصف ذكره عبد الله الطيب عن مباني وميادين جامعة الخرطوم وحديقتها النباتية ولكن الطبيعة الساحرة الغناء لجنوب أفريقيا بصورة عامة تجعل الغلبة من هذه الناحية لجامعة هيلدتاون.

في بداية التجهيزي - ما يعادل الثانوي - بكلية غردون عين عبد الله الطيب (ألفه) (عريف) على الفصل بحكم أنه كان أول الدفعة، و لكن ضابط المدرسة عزله عن هذا المنصب خلال أيام قليلة فكان هذا آخر عهده بالزعامة.

بعد الثانوي أو التجهيزي بدأ مانديلا دراسة القانون بناء على رغبته وبتشجيع من السلطان. عبد الله الطيب رفض دراسة القانون رغم تأهيله ورغبة أهله، بل و برغم إصرار مستر سكوت ومتابعته الشخصية، اختار عبد الله الطيب

دراسة اللغة العربية وهو يدرك أنه مهما بلغ فيها من تفوق فلن يحصل على أكثر من وظيفة معلم، وكأنه بذلك يطبق شعار (لا للسلطة ولا للجاه) بنقاء وصدق.

عبد الله الطيب كان أكاديمياً حاد الذكاء بكل المقاييس وكان يتمتع بذاكرة قوية فريدة في زمانها وضعته ومنذ بدايات حياته التعليمية في منافسة ليست مع زملائه فحسب وإنما مع أساتذته. ورغم كل الصعاب استطاع أن يشق طريقه بنجاح فنال درجة الدكتوراة في سن مبكرة، يونيو عام ١٩٥٠ ليكون ثالث عالم سوداني يحصل على هذه الدرجة بعد عيدروس في علم الفلك ١٩٣٥ وشبيكة في التاريخ ١٩٤٩.

مانديلا هو الآخر ورغم ظروف النضال والتفرقة العنصرية نجح في المجال الأكاديمي بل واستطاع من داخل السجن وقبيل محاكمات ريفونيا الشهيرة، أن يدرس و يجتاز امتحان الليسانس في القانون من جامعة لندن، وكان وقتها يقول له حراس السجن يا مانديلا إنك لن تحتاج لهذه الشهادة حيث أنت ذاهب - أي بعد الإعدام الوشيك - ولكن مانديلا كان يرفع شعار اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً.

وكان في ذلك الوقت، أن طبقت شهرة مانديلا الآفاق كقائد شاب ومناضل ضد العنصرية في جنوب أفريقيا، وفي هذه الأثناء انتخبه طلاب جامعة لندن رئيساً لإتحاد الطلاب غيابياً في نفس الوقت الذي بلغت فيه قضية التفرقة العنصرية مجلس الأمن الذي اتخذ قراراً بإطلاق سراح مانديلا ورفاقه، الجدير بالذكر أن السودان هو الدولة التي دعت لاجتماع مجلس الأمن واستصدار ذلك القرار الذي امتنعت فيه بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية عن التصويت، وصارت المحاكمات محط الأنظار والمتابعة الإعلامية العالمية.

مع بداية انتظام الدراسة لم يفت على مانديلا بتواضعه الجم و حرصه على نقل تجربته الإنسانية بكل دقائقها أن يذكر كيف أنه لبس البيجاما لأول مرة وكيف بدأ استعمال الفرشاة والمعجون في هذه المرحلة بدلاً عن السواك بالأعواد والرماد في القرية. واستمرت الدراسة الجامعية كما هي في سائر الجامعات بمناهجها الدراسية المتشابهة وما فيها من ذكريات ونشاطات طلابية. السباحة كانت أهم هوايات عبد الله الطيب في حين تعلم مانديلا الملاكمة في سنوات الجامعة الأولى وظل يمارس هذه الهواية حتى بلغ شأناً عظيماً في هذا المجال فكان من الملاكمين المشهورين في جوهانسبرج وأورث هذه الهواية لابنه الكبير تيمبو وأشرف على تدريبه بنفسه. عبد الله الطيب رأيه في الملاكمة عنيف بدرجة عنفها فهو يرى أنها توحش مدني وأن البيض يربون السود من أجلها كالثيران. وحتى مباريات كرة القدم كان يعللها من التسلية الرومانية السنخة لغوءاء العصر الحديث. وهذا الرأي مضمن في القصة التي ينسبها الشعب السوداني لعبد الله الطيب عندما منعه حراس إحدى المؤسسات العامة من الدخول لعدم معرفته إياه حيث قال للحارس هل تعرف جكسا؟ ولعل مما يذكر هنا أن السودان في عهد الديمقراطية الأولى عام ١٩٥٧ منع فريق جنوب أفريقيا لكرة القدم من المشاركة في المباريات المقامة بالخرطوم وذلك لعدم وجود لاعبين أفارقة ضمن تشكيلة الفريق العنصرية. والسودان هو أول دولة تقاطع حكومة جنوب أفريقيا العنصرية. وفي هذا السياق فإن مانديلا يذكر زيارته للسودان في أغسطس عام ١٩٦٢ و برفقته رجل أبيض هو ماثيوس اليساري من الناشطين والمتضامنين البيض مع حركة التحرير في جنوب أفريقيا حين رفض مسئول الجوازات بمطار الخرطوم أن يأذن له بالدخول إلا بعد تدخل مانديلا. و يستطرد مانديلا في الحديث عن هذه الزيارة و يقول كنا

نتحدث مع الرئيس السوداني عبود وكأننا نتحدث مع عضو في حزبنا، وهو أبلغ وصف لذلك التضامن السوداني الأفريقي، وأشار إلى الدعم المادي الذي تسلمه منه، وأن اسم السودان كان في مقدمة الكشف (الخطة) ليأتي بعد ذلك هيلاسلاسي، ونايريري، وسيكوتوري، وبن بيل، وجمال عبد الناصر وغيرهم، وبالتحديد يقول مانديلا إن أول حزمة من العملة الصعبة، الإسترليني، يستلمها مانديلا في يده كانت من السودان، و بهذه المناسبة فإن أول جواز سفر يحصل عليه مانديلا كان جوازاً سودانياً أصدر له من الخرطوم، و ما زالت زوجة امبكي الرئيس الحالي لجنوب أفريقيا تحتفظ بجوازها السوداني مثل الكثيرين من قادة حركات التحرير الأفريقية في موزمبيق و انجولا وغيرها. ولعل مما يجدر ذكره أن مانديلا كان قد اعتقل وحوكم و بدأ سنوات سجنه الطويلة بعد عودته من رحلته هذه مباشرة فأبرق الحزب الرئيس عبود فكان مندوب السودان في مجلس الأمن هو أول من نادى بإطلاق سراح مانديلا.

(٦)

ابن القبيلة الموظف

أثناء الدراسة وبعد التخرج لم يكن مانديلا يخطط لأن يكون سياسياً بهذا الحجم، وكان غاية طموحه هو أن يحصل على وظيفة مرموقة و مسكن بأثاث حديث يؤوى فيه أمه، وبالفعل كان جزءاً من هذا الطموح قد تحقق عندما التحق بالعمل في مكتب بلسكى اليهودي للمحاماة، ثم تزوج من إيفلين مايس أم أولاده الكبار تيمبو وماكزويني. وبكل أخلاق أولاد القبائل أحضر والدته توسكيني فساني وأخته ليابي، ليكونا تحت كفالته والتزم بمصاريف أخته الدراسية و إعاشتها. هي نفس أخلاق أولاد القبائل التي لازمت عبد الله الطيب طوال سنوات حياته ما تأثرت بنمط الحياة الغربية رغم ارتباطه الوثيق بها أثناء الدراسة والعمل، ورغم زواجه من امرأة أوربية إلا أنه ظل ملتزماً ومتمسكاً بما يمليه عليه الواجب بل وأكثر في هذا الصدد، فقد كان عميداً لأسرته واقفاً على كل شئونها وشجونها من تعليم تربية للعديد من أبناء الأسرة الممتدة وغير ذلك من واجبات أولاد القبائل. (من الملاحظ وأنه وحتى في الشئون الدولية يتم الاعتماد على أخلاق أولاد القبائل الرجوع إلى زعماء العشائر، وذلك عندما تفشل السياسات والإستراتيجيات العالمية، كما هو الوضع الآن في العراق و الباكستان وأفغانستان). تحسن وضع مانديلا المادي في هذه الفترة فأنشأ هو وزميله الأفريقي تامبو أول مكتب محاماة خاص بالسود في جوهانسبرج، فكان ذلك المكتب قبلة المظلومين من الوطنيين الأفارقة وما أكثرهم وما أظلم قضاتهم وما أنصف قضاياهم التي تبدأ و تنتهي عند التفرقة العنصرية، والذين كانوا في حاجة ماسة لمساندة القانون. من أشكال تلك القضايا مثلاً عند استخدام المباني الحكومية يتحتم على السود الدخول فقط من الأبواب المخصصة

لهم إذ أن الدخول من أبواب البيض كان يعتبر جريمة. كان ركوب الحافلة الخاصة بالبيض يعتبر جريمة. الخروج بعد الساعة الحادية عشر ليلاً بالنسبة للسود يعتبر جريمة، كما كان عدم حيازة جواز مرور في غير أوقات الدوام يعتبر جريمة. كانت البطالة جريمة وفي ذات الوقت فإن العمل في وظائف معينة يعتبر جريمة. وكان التشرد كما أن الإقامة في أماكن معينة جريمة. هذه هي أنواع القضايا التي كانت ترد على مكتب مانديلا للمحاماة.

من هنا بدأ اهتمام مانديلا بقضية التفرقة العنصرية وتحول من الإهتمام بالقضايا الفردية إلى حمل هم الأمة وقضية التحرير بكل أبعادها القانونية والسياسية. وانخرط في تنظيم المؤتمر الوطني الأفريقي رغم معارضة مدربه المحامي بلسكى، فهو كشأن أهله اليهود يريد من المتعلمين أن يقفوا عند حدود الوظيفة ويتجردوا من أي رسالة إنسانية، وأن يكون تحولهم الحضاري محصوراً فقط في النقلة من بدائية الغابة إلى آلية المدن فيكونوا موظفين آليين في مؤسسات آلية في دول آلية في منظمات دولية يتحكمون في آلياتها. وابنهم العالم الفاهم ألبرت آينشتين يقول في هذا الصدد (إذا كان غاية الإنسان هو أن يكون فقط موظفاً فإن' النخاع الشوكي يكفيه لهذه المهمة دون الحاجة للمخ). وربما يتمشى مع هذا السياق أيضاً، فحوى ذلك الحوار بين الطالب المسلم وأستاذه الأوربي، إذ كلما سأل الطالب ذلك البروفيسور عن وظيفة أي عضو في جسم الإنسان مثلاً القلب، المخ، الكبد، الكلية... كانت الإجابة محددة ومعرفة تعريفاً قاطعاً ومتفق عليها من قبل كل العلماء لمهمة كل عضو ولكن عندما يكون السؤال عن المهمة أو الوظيفة الكلية لكل هذه الأعضاء مجتمعة، أي مهمة الإنسان، فإن

الإجابة تكون غير محددة وغير قطعية وغير متفق عليها ... وهنا يأتي دور الدين مكان العلم المحدود وتأتي الرسالة مكان الوظيفة لتحديد دور الإنسان في الكون.

مقارنة بالبيض الآخرين فقد لاحظ مانديلا أن اليهود أوسع أفقاً وأقل حدة في تعاطيهم و تعاملهم مع التفرقة العنصرية، وكان كثيراً ما يتلقى أعضاء المؤتمر الوطني الدعم النسبي والخفي من اليهود، وذكر مانديلا أن خطوط الطيران الإسرائيلية - العال - هي الخطوط الوحيدة التي كانت تحمل في سفراتها أعضاء المؤتمر الأفريقي وبحوزتهم فقط بعض الأوراق الثبوتية و بلا جوازات سفر.

ربما كان ذلك لأن اليهود كانوا يمارسون بعض أنواع العداء الخفي مع الأنظمة النازية والتي كان النظام الحاكم وقتها في جنوب أفريقيا يعتبر من ضمنها. ولكن مثل هذه الأشياء قصيرة العمر وسرعان ما تستدرك الدلائل وتذكر الحقائق - فأكبر وآخر إدارة عالمية لإسرائيل كانت من المنظمات غير الحكومية في أكبر وآخر تجمع لها وجنوب أفريقيا الدولة المستضيفة كانت في مقدمتهم ومظاهرات كيب تاون، الضخمة في مايو ٢٠٠٥ كانت المجاهرة الوحيدة ضد الإرهاب الإسرائيلي في زمن الصمت هذا. وإسرائيل تعمل ألف حساب لجنوب أفريقيا، فنظامها مهما كان لا يمكن أن يدور مع الدائرين في فلك سياسة المحافظين الجدد الأميركية الحالية، لأنه يتوخى العدل والمساواة في كل شيء على مستوى السياسة الداخلية والخارجية بعد هذه القرون الطويلة من الظلم كما أن جنوب أفريقيا هي من بين الدول التي تملك الطاقة الذرية وكانت قد بلغت شأواً بعيداً في التقدم التقني، فأول عملية زراعة قلب كانت قد أجريت في جنوب أفريقيا قبل أربعة عقود من الزمان وهي عمليات تأتي على قمة هرم ضخ من الرصيد التقني والعلمي.

البيت الزوجي الأسرة

يقول مانديلا: لأن تكون أباً لأمة فهذا شرف عظيم ولكن أن تكون أباً لأسرة فهذه هي السعادة الحقيقية.

نيلسون مانديلا لم يهنأ بالاستقرار في حياته الزوجية، إذ زوجته الأولى إيفلين انضمت لجماعة (شهود يهوا) لتملأ الفراغ الذي تركه الزوج المشغول، وهي جماعة انصرافية وغير واقعية، وترضى بالظلم - حسب رأى مانديلا مما أدى للطلاق رغم وجود ثلاثة أطفال أكبرهم في العاشرة. وإيفلين هذه كانت تعمل ممرضة، وعندما توقف مانديلا عن العمل كان اعتماده هو، وأمه وأخته، على راتب زوجته إيفلين. لم يمض طويل وقت حتى تزوج من أشهر زوجاته وينى نومزامو عام ١٩٥٨ إثر قصة حب قصيرة جداً المحرك الأساسي فيها هو شكلها الجميل، وذلك برغم الفوارق الفكرية والطبقية بينهما: فهي امرأة سطحية من أسرة ثرية ووالدها جنتلمان أسود غير متحمس للنضال بل كان موالياً لحكومة البيض ومبهوراً بالحضارة الأوروبية مما جعل موقف وينى صعباً بالإضافة لما عانته من ذوبان لشخصيتها في شخصية ماندلا التي بلغت قمة المجد حيث صار زعيماً وطنياً ورمزاً أممياً. كانت وينى بحكم أنها زوجة مانديلا ملاحقة من قبل السلطات وعانت الكثير في تربية الأطفال في غياب الزوج المطارد حيناً، والمعتقل أحياناً، ثم المسجون لربع قرن من الزمان. برغم من ذلك وبعد خروج ماندلا من السجن لم تصف الحياة بينهما باعتبارهما زوجين، ونوقشت المسألة على مستوى الحزب لتنتهي بإعلان الطلاق في مؤتمر صحفي رغم شفاعاة الأجاويد من رؤساء العالم ومشاهيره وعلى رأسهم لويس فرخان زعيم أمة الإسلام الأميركية، والذي كان

يطلق عليها لقب أم الجهاد الكبير. و بعد الطلاق بدأت وبنى فترة عقوبة لخمس سنوات في ظل حكومتها الوطنية لمخالفات غير سياسية و يبدو ورغم سنوات الزواج الطويلة التي غطى السجن معظمها أنها لم تكن في قدر ومقام مانديلا العظيم. مانديلا الذي ظل وفياً لأخلاق أولاد القبائل لآخر العمر (غطى قدحه) السياسي وتزوج من قريشيا ماشى أرملة زميله المناضل سامورا ميشيل رئيس موزمبيق السابق.

وعلى كل فإن رحلة النضال الطويلة لنيلسون مانديلا و ما صاحبها من تغييرات ومراحل نضج سياسي واجتماعي تابعناه فيها منذ أن كان عنصرياً حاد المواقف لا يعرف غير المعارك لحسم القضايا. حتى صار زعيماً ومربياً لا يرى ولا يتبنى حلاً لقضايا التفرقة العنصرية غير الحوار والتسامح، حتى مع الأعداء البيض الذين أعدموا إخوانه ورفاقه، وزجوا به في السجن لفترة امتدت لأكثر من ربع قرن من الزمان اقتطعت من أحلى سنوات العمر. نفس مراحل النمو هذه على المستوى السياسي صحبتها مراحل تطور ونمو على مستوى السلوك الشخصي، فمانديلا ذلك الصبي المتمرد على أعراف القبيلة، والهارب من أهله عندما أرادوا تزويجه في سن مبكرة، المتسكع في شوارع المدينة، الملاك، والراقص الذي تعرفه كل ملاهي جوهانسبرج وغانياتها، - تحول ذلك الشاب بتلك الصفات وبالتدريج في رحلة مصاحبة لذلك التغيير الخارجي بتغيير داخلي إلى حكمة الكهولة، وتحول إلى شخصية مسئولة ورب أسرة يحمل الهم و يقدر حقوق الآخرين. تابع الملايين في جميع أنحاء العالم خطابه التاريخي لحظة خروجه من السجن اليوم الحادي عشر من فبراير ١٩٩٠، والدنيا صيف في كيب تاون جنوب الكرة الأرضية. لم يفت على مانديلا وهو يخاطب الجماهير الهادرة الهاتفة، أن

يوجه ضمن ذلك الخطاب الأممي كلمة شكر و تقدير لأفراد أسرته وأبنائه والإشادة بصبرهم، والإشارة إلى معاناتهم، التي وصفها بأنها فاقت معاناته هو طيلة فترة السجن. كانت زوجته ويني تقف بجواره لحظات الخطاب فتناول منها نظاراتها ليقرا الخطاب وهو يضع على وجهه نظارة نسائية. فقد خرج مانديلا المسكين من السجن بدون نظارة، ومما يذكره في تلك اللحظات الخالدة أنه خاف وجفل من ماسورة حديد طويلة مكسوة ببلاستيك ظن أنها نوع جديد من السلاح، حتى طمأنته ويني بأنها أنواع جديدة من مايكات المايكروفونات.

نيلسون مانديلا قضى بالسجن ستة وعشرين عاماً، وهي فترة طويلة لابد أن تؤثر سلباً في حياة أي إنسان، مانديلا وأسرته ظلا معزولين عن بعضهما، وعانى الجميع خلال هذه الفترة - أفراح وأتراح مرت - تزوجت ابنته زيني وهو في السجن فكلف صديقه وزميله جورج بيزوس ليقوم بدور الأب نيابة عنه ثم بعد فترة زارته ابنته هذه وهي تحمل طفلتها - لأول مرة يرى ابنته منذ أن كانت طفلة، والآن هي أم صغيرة وفي نفس قوة وجمال ويني - في زيارة تحسب بالذائق بعد هذه السنوات الطويلة، يحمل حفيدته بين يديه - وعلى حد تعبيره، تلك الأيادي الخشنة التي لم تعرف سوى الفؤوس و المجارف. وفي زيارة أخرى يصف لقاءه بزوجه ويني وكيف سمحت له السلطات بلمسها في زيارة مفتوحة بعد واحد وعشرين عاماً من العزلة - قال فظل كل شيء ساكناً إلا قلبي و قلبها. ومانديلا نفسه يصف السجن بأنه نقطة سكون في عالم متحرك، و يضيف، إن السجن لا يسلب الإنسان حريته فحسب ولكن هويته أيضاً. وبالتأكيد أن هذه الفترة الطويلة كفيلة بأن تنسى الإنسان كل شيء حتى اسمه:

أنا قد نسيت اسمي أنا رقم يطوق معصمي

ولكن يبدو أن ماندلا- السجين رقم ٤٦٦٤- دخل السجن برصيد كبير كافٍ من الأخلاق والمبادئ السامية التي ظلت ملازمة له طيلة هذه الفترة الطويلة، مما جعله صامداً في وجه أى تغيير. يقول مانديلا إن أكثر شيء يرفع معنويات السجين هو علمه بأن الناس يؤيدون القضية التي سجن من أجلها. وحتى التفاصيل الصغيرة تعكس بعضاً من تلك الملامح النبيلة - أعطى ماندلا ذات مرة سروالاً طويلاً، وعندما علم أن بقية السجناء لم يُعطوا مثله أرجعه لإدارة السجن. في السنوات الأخيرة، أثناء فترة المفاوضات مع الحكومة العنصرية، قبيل إطلاق سراحه سمحت السلطات لمانديلا بدخول إحدى المستشفيات بمدينة كيب تاون، ليتعالج من ورم خبيث في البروستاتا، فكانت المرة الأولى في حياته التي يفحصه فيها طبيب أبيض. وجد معاملة طيبة من الكادر الطبي بألوان طيفه المتنوعة من بيض وملونين وسود. (بالمناسبة) المستشفيات والمؤسسات الطبية من الأماكن المهمة التي تذوب فيها الفوارق العرقية وتتلاشى النعرات العنصرية لأن العمل الطبي يجمع بين العلم والإنسانية. والعلاقات بين الأطباء، كباراً وصغاراً، أساتذة وتلاميذاً والمرضى تأخذ أبعاداً إنسانية في غاية الجمال الجلال. كما سمحت السلطات لمانديلا في نفس الفترة من عام ١٩٨٦ بالتجول، تحت الحراسة، في سوق المدينة، و لكن لم يتعرف عليه أحد لأن آخر صورة نشرت له كانت عام ١٩٦٢. ومع مزيد من الانفراج، وقبل الإفراج النهائي سمح له بالاحتفال بعيد ميلاده الحادي والسبعين في بيت ملحق بالسجن وسط جمع حاشد من أفراد أسرته، قال مانديلا أنه حاول أن يظهر في ملابس أنيق ولكنه نسي كيفية ربطة العنق طيلة هذه السنوات.

أطول فترة سجن قضاها قائد وطني سوداني في سجون المستعمر الإنجليزي كانت أيضاً ستة وعشرين سنة، قضاها الأمير عثمان دقنة مكبلاً بالقيود حتى قضى نحبه ولم يبدل تبديلاً. وعثمان دقنة وإن كان من منطقة البجا بشرق السودان إلا أنه أخذ الطريقة من المجازيب في الدامر وبواسطتهم دخل المهديّة. الآن وبعد أن تجاوز مانديلا مرحلة الكهولة و صار شيخاً هرمًا على أعتاب التسعينات فمن الطبيعي أن يركن إلى الهدوء الريفى والاستقرار النسبي كما فى بداية حياته، فهو يحب أن يطلق عليه اسمه الأول العادي - مادييا - بدلاً عن اسم الأوراق الرسمية نيلسون مانديلا، وهو الآن مكان رعاية زوجته الأرملة سابقاً قارشيا وأبنائه وأحفاده و أبناء أحفاده ومحل اهتمام سكرتيرته زيلدا لوقرانج وهي امرأة حسناء بيضاء فاقع لونها تسر الناظرين، وكأني به ينظر إليها و يلوى شفاهه مردداً مع العباسي رحمه الله:

سبعون قصرن الخطى و تركني امشي الهوينا ظالماً متعثراً

من بعد أن كنت الذي يطا الثرى زهواً و يستهوي الحسان تبطراً

والأسرة التي انحدرت منها سكرتيرته زيلدا هي من أهم الأسر الداعمة للمؤتمر الوطني (الحزب الحاكم أثناء فترة التفرقة العنصرية).

وبالرغم من ميله إلى الحياة الخاصة الهادئة التي افتقدها كثيراً فإن مادييا ما انفك أن يكون نيلسون مانديلا، تلك الشخصية العامة بل أكثر شخصية في العالم شهرة واحتراماً على الإطلاق ورغم المعاكسة الخفية لبعض وسائل الإعلام الغربي ومحاولة تجاهله لحاجة في نفسها، فقد ذكر مدير البي بي سي، كمثال، عقب ظهور مانديلا في محطته في روبرتاج مطول عن قصة حياته، ذكر المدير أن هذا الأمر كان رغباً عنه فقد أصرت عليه ابنته الوحيدة لإنجاز هذا العمل لأنها تعتقد أن

مانديلا هو رمز الإنسانية الآن، وبطل العالم الأول. كل ساسة العالم يحسبون ألف حساب لتصريحات مانديلا بما فيهم الرئيس الأمريكي جورج بوش والذي رفض مانديلا مقابلته أثناء زيارته لجنوب أفريقيا، وذلك لرأيه في الحرب ضد العراق. كما ظل مانديلا مغنطيساً جذاباً لكل مشاهير العالم حتى للذين هم خارج الإطار السياسي والأيدولوجي كالمغنيين العالميين و الممثلين و أبطال الملاكمة وغيرهم من السذج والبسطاء. مشهد معبر في فلم وثائقي عن مانديلا عرضته إحدى الفضائيات يصور عاملة نظافة أفريقية متوسطة العمر في أحد الفنادق الفخمة في جوهانسبرج و قد دخلت في حالة هستيريا و هي تصرخ بتشنج ... مانديلا مانديلا مانديلا لحظة أن فوجئت به وهو يمر برفقة معاونيه متوكئاً على عصاه ببهو الفندق على مرأى و مسمع منها ومنه. من أروع أقوال مانديلا - ينبغي الحكم على أي أمة أو دولة من خلال معاملتها لأدنى مواطنيها وليس أرقاهم.

بروفيسور عبد الله الطيب لم يكن مقصوراً على الأكاديميين كما لم يكن مقتصوراً في القاعات و المدرجات الأكاديمية، بل كان له حبّ وحضور في قلوب العامة والبسطاء أيضاً. يحكى أحد الأصدقاء أنه رافق عبد الله الطيب إلى سوق الغنم ذات يوم ليشتري خروفاً، وكالعادة بدأ صاحب الأغنام النقاش والمفاصلة مصراً على أعلى سعر، ولكن الرجل البسيط الطيب سرعان ما كف عن الحديث عندما أدرك أن زبونه هو الدكتور عبد الله الطيب، فقد عرفه وأحبه مع الملايين من ذلك الصوت الذي كثيراً ما ألفه مساء كل يوم يفسر القرآن الكريم باللغة العامية مشفوعاً بنبرات الشيخ صديق أحمد حمدون، عبر ذلك البرنامج الإذاعي الخالد والذي استغرق تسجيله زهاء الثلاثة عشر عاماً واستمر بثه و ما زال على مدى

نصف قرن من الزمان، فما كان منه إلا أن أقسم بالطلاق على أن يأخذ البروفيسور عبد الله الطيب الخروف مجاناً هدية وإكراماً. و كثيرة ما كانت مثل هذه المواقف مع البروفيسور عبد الله الطيب الذي دخل قلوب العامة و البسطاء الطيبين. مثال آخر هو هذه القصة القصيرة التي وردت بأحد مواقع الإنترنت:

الولد سميتو منو يا الطيب ؟

يتقدم "الطيب" حاملاً جوال الذرة على ظهره مُمسكا به بكلتا يديه، على طريقة الحمّالين المعروفة ، وجسده مائلٌ إلى الأمام من ثقل ما عليه من عبء ، يتوقف لثانية، يدير جسده كله بما حمل حتى تصبح عربة (الكارو) وراء ظهره تماماً ثم يرجع خطوة قصيرة إلى الوراء ، خطوة واحدة عرف طولها بخبرته، فيطلق الجوال . يتحرر الجوال من قبضتيه القويتين ويسقط فوق سطح عربة (الكارو). ثم يدير الطيب جسده كله مرة أخرى ليواجه عربة (الكارو) هذه المرة ويرى جوال الذرة وقد استقر في مكانه تماماً كما أراد له، يضرب يديه إحداهما بالأخرى دلالة الرضاء ، ويلتفت إلى سائله قائلاً:

سميتو عبد الله

يا أخي كان تشوف للولد اسم من أسامي أولاد الزمن دا، عشان بعدين ما يجيلومك و يقول ليك سميتني اسم قديم !..... لكن يا زول أقولك برضو خيرا فعلت ! قالوا خير الأسماء ما حمّد و عبّد.

أصلح "الطيب" من مقعده على ظهر عربة (الكارو) وأمسك بالحبل الذي يستخدمه في توجيه سير الحصان ثم وهو يتأهب للانطلاق، التفت إلى محدثه

وقال - أنا سميتو عبد الله عشان يكون اسمو (عبد الله الطيب)، وإن شاء الله
حيطلع لي ذي عبد الله الطيب)

عاش عبد الله الطيب حياة زوجية مستقرة و مستمرة. زواج واحد، وزوجة
واحدة منذ عهد الصبا الباكر وحتى الوفاة. زوجته السيدة قريزدا تريدويل بريطانية
الجنسية اعتنقت الإسلام بعد فترة من الزواج وكان يطلق عليها اسم جوهرة بعد أن
أثبتت - طيلة كل تلك السنوات أنها حقاً جوهرة . استمر الحال بينهما على أحسن
ما يكون برغم الفوارق العرقية والحضارية و برغم عدم وجود الأطفال. وبما أن
الحب وحده لا يكفي لاستمرار زواج كهذا طيلة مراحل العمر المختلفة، فإن
الالتزام المسئول وبعد النظر المسئول من الوازع الديني والنضج المبكر للشخصية
هو الأساس. تقول قريزدا: كبر جداً عبد الله في نظري وهو يجيء من السودان
ومن أفريقيا وكبر أكثر عندما شهدت القرية التي جاء منها.

قريزدا، تلك الفنانة الإنسانية الجادة تأثرت بزوجها الجاد. التحقت بكلية
الآداب بجامعة الخرطوم وهي في مطلع الأربعينات من عمرها العامر. عبد الله
الطيب، أثناء فترة الدراسة ببريطانيا كان واحداً من القليلين الذين تجاوزوا عقدة
وانهزامية مصطفى سعيد، بطل رواية موسم الهجرة إلى الشمال، تلك الشخصية
الروائية والتي تكاد أن تكون شخصية واقعية مألوفة للجميع وذلك من فرط تكرار
ملامحها التي تجسدت في الكثير من المتعلمين والمتعاملين مع الحضارة والمرأة
الأوربية وما تعرضوا له من اضطرابات داخل وخارج إطار الحياة الزوجية.
كتبت السيدة قريزدا مقالاً تحليلياً رائعاً عن شخصية مصطفى سعيد، بطل موسم
الهجرة إلى الشمال، وزعت فيه الجوانب المختلفة لهذه الشخصية بكل أبعادها على

العديد من السودانيين الذين عاصروا أحداث الرواية زماناً و مكاناً، وأعطت البروفيسور عبد الله الطيب الجانب الجاد من هذه الشخصية.

يقول مانديلا إن زوجة المناضل أشبه بالأرملة لما تعانيه من غياب الزوج المحارب أحياناً والمختفي أحياناً والمعتقل أحياناً أخرى. و بالمقابل فإن زوجة العالم أشبه بالزوجة المعلقة وذلك لانشغاله بالتأليف والبحث والكتابة والنشاطات الأكاديمية الكثيرة، التي ربما أخذته بالكلية وشغلته عن حياته الزوجية. وكثيراً ما تحمل الصفحات الأولى ومقدمات المؤلفات العلمية إهداءات أولئك العلماء واعتذاراتهم المضمنة لزوجاتهم و أسرهم.

بينما توضح سجلات مانديلا الكثير من أيام التشرد والتسكع بشوارع جوهانسبرج، خاصة بعد انتقاله من حياة الريف الريفية بعد أن نال حظاً من التعليم، وهروبه من السلطان عام ١٩٤١ عندما أجبره على الارتباط بإحدى فتيات القرية. بالمقابل فإن عبد الله الطيب كان يواصل اجتهاده وطموحه الأكاديمي، ويتنقل به النجاح في تلك الفترة الغضة من الشباب الباكر بين كلية غردون ومعهد بخت الرضا، و جامعة لندن.

في السنوات الأخيرة شيدت وبنى كثران الزوجات السطحيات منزلاً ضخماً فخماً، ولكن مانديلا رفض السكن فيه وقال إنه بيت فخم و مترف لا يليق بزعيم شعبي مثلي يريد أن يعيش مثل أبناء قومه. قال إن ذلك البيت الفخم لا يعنى شيئاً بالنسبة له ولا يحمل له أي ذكريات وأصر على السكن في البيت رقم ٨١١٥ في حي أورلاندو وهو بيت بسيط به أربع غرف كان يسكنه قبل السجن، قال إنه يمثل قلب العالم في جغرافية حياته.

قريزلدا، زوجة و جوهرة عبد الله الطيب، عندما حضرت مع زوجها لأول مرة جهز لها الأهل بيتاً في الدامر، وهم خائفون ألا يعجبها الحال و توفيق صالح جبريل القادم من العاصمة السودانية قال:

أيا دامرَ المجذوبِ لا أنتِ قريةٌ بداوتها تبدو و لا أنتِ بندرُ

فكيف بقادم من عاصمة الحضارة البريطانية. غير أن قريزلدا لم تسعد بالبقاء في دامر المجذوب فحسب بل أصرت على الذهاب إلى قرية التميراب بالجانب الغربي من النيل وقالت إنها لا بد أن تبقى في تلك القرية البسيطة التي أنجبت ذلك العبقرى العظيم، عبد الله الطيب. كثيراً ما احتوت لوحات السيدة قرزيلدا، كهذه اللوحة المضمنة في هذا الكتاب، على مشاهد من القرية السودانية وبساطتها. نفس المشاهد من القرية التي كان يرسمها محمد المهدي المجذوب بكلماته:

جلست بظل الضحى
و ظهري إلى حائط من لبن
عليه طلاء خشن
من الروث ... خضرته المعتمه
رماة على شمسنا المضرمه

و مرت بنا نعجة
عجوزٌ بأسمائها
تصيح بأطفالها
تميل لظل الضحى

و ترقد تحت الجدار
تشمُ الطلاء الخشن
و ما حفلت بالزمان
تحرك شديق لا يفتران
و أعينها أكؤس فارغات
فهل مضغت ذكريات
و راق لها الفرار

و كذلك من أشعار عبد الطيب:

بدامر الصديق لي رهطاً وأصحابُ
و بالتميراب لي أهلٌ و منتابُ
إنني لعمرك ما فارقت مقليةً
قومي ولكنها الأقدار تتتابُ
و ما أردت حطام العيش أطلبه
و ربُّ غيري له ساعٍ و طَلابُ

عبد الله الطيب قُصر واقتصر طموحه على السكن في بيت الجامعة
الحكومي وقد أطلق اسم بروفيسور عبد الله الطيب على الشارع الذي يطل عليه
البيت في بداية منطقة برى بالخرطوم.

بعضة أشهر من وفاته زرت البروفيسور عبد الله الطيب في بيته عدة
مرات إحداها كانت بصحبة عميد التراث السوداني الأستاذ الطيب محمد الطيب،
رحمه الله، فوجدنا السيدة الفضلى قرزilda ملازمة له وقائمة على رعايته والاهتمام
به خير قيام، و تشرف بنفسها على دقائق وتفاصيل طعامه ودوائه و شرابه. أذكر
أنها طلبت من الأستاذ الطيب محمد الطيب أن ينشده شيئاً من المديح، و هي
حريصة على تقديم كل ما يسعد رفيق الدرب.

وعلى كل فإنه ليس ثمة وجه شبه بين السيدة قرزيلدا قرينة عبد الله الطيب
و بين السيدة وينى المطلقة من نيلسون مانديلا. إذ أن قرزيلدا لم تكن مجرد امرأة،
وإنما كانت مفكرة وشاعرة وفنانة إنجليزية من الطراز الأول، ولا عجب أن
منحتها ملكة بريطانيا وسام (العضو في الإمبراطورية البريطانية).



صورة من جنوب أفريقيا ولوحة من المنطقة الصناعية بالخرطوم



الحزن النبيل الحزن القديم

كل الأشياء تولد صغيرة لتكبر إلا الحزن فإنه يولد كبيراً ليصغر.....

لقد كان العام ١٩٦٩ هو عام الحزن في حياة نيلسون مانديلا، فقد توفيت والدته توسكيني فاني كما توفى في حادثة سير ابنه الأكبر ماديلا تيمبكيلى عن خمسة وعشرين عاماً. وهو الذي كان يردد دائماً بأنه سيكون خليفة والده في رعاية الأسرة، وهو نفس العام الذي أدخلت فيه السلطات العنصرية زوجته وبنى السجن ولمدة سبعة عشر شهراً تاركةً بقية الأطفال لوحدهم. كانت والدته مانديلا قد زارته في السجن قبل وفاتها ببضعة أسابيع، و يذكر أن تلك الزيارة كانت هي المرة الأولى والأخيرة التي يراها فيها بعد غيبة استمرت ست سنوات، وقد بدت عليها علامات الشيخوخة وكانت بصحبة أبنائه ماكيفاتو وماكزيوي وأخته مابل ونظراً لزيادة عدد الزوار ومجيئهم من بعد زماني ومكاني بعيد فقد تكرمت سلطات السجن بمد فترة الزيارة من ثلاثين إلى خمسة وأربعين دقيقة. تألم مانديلا غاية الألم عندما لم تسمح له السلطات بحضور جنازة والدته و ابنه. حزنٌ في حزنٍ في حرمان. لذلك كانت أول أمنية حققها بعد خروجه من السجن هو زيارة قبر والدته.

توفى والد عبد الله الطيب كما سلف وهو بالسنة الثانية الوسطى عام ١٩٣٣ وكان سبب وفاته علة في الكبد. يقول عبد الله الطيب عنه إنه كان قد رُقَّ للعبادة أشد رقة، ولم يزل إلى أخريات سنواته يتلو القرآن بالسحر، وكان متقناً له وبه صيتاً ندى الأداء. بعد عام من وفاة والده توفى أخوه الشقيق حسن غرقاً (بالمتره) بأم الطيور، جهة أتبرة، وقد كان أخوه حسن هذا صنو روحه وتوأمها وكانت وفاته نقطة تحول فاجعة في حياته، يقول: كنت أنشل عند البئر وراء حجرة

الطعام بداخلية المدرسة لأغسل ملابسي وجاء أحدهم يحمل ظرفاً فيه رسالة
ففتحتها و قرأت:

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وإذا بحسن قد غرق في المطرة يوم الإثنين، سقطت دمعة كبيرة جداً. وتماسكت
وتجلدت ... قالت الخنساء رضي الله عنها:

يذكّرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على قتلاهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن أسلى النفس عنه بالتأسي

كما توفيت شقيقته في سن مبكرة إحداها هي أخته زينب التي توفيت بالسحائي
سنة ١٩٤١ فنكأ رزوها قروحاً ما برئت.

أختي قد شطّ المزار فيننا مسيرٌ على الأيام و السنوات

ثم توفيت جدته لأمه بخيئة بنت حواء، بنت خلف الله ود بدير، وكانت رباطابية
من أرتل الشريق، ذات شخصية قوية وكانت بعد وفاة والده ركناً للعائلة كلها
رحمها الله. ثم لحقتها بعد أسابيع قليلة والدته عبد الله الطيب عائشة جلال الدين
وكان حينئذ بالسنة الثانية الثانوية، وكان لصيقاً بأمه خاصة بعد وفاة والده و كان
يحبها حباً شديداً غزيراً.



مانديلا ، وله من رقع الجبة ألوان الحديقة وله طاقة ذات نكهة إسلامية



وادی من جنوب أفريقيا

النزعة الأفريقية والنكهة الإسلامية

النظرة السطحية توحى بأن عبد الله الطيب كان محصوراً في الثقافة العربية وأن مانديلا كان مقصوراً على الهوية الأفريقية ولكن الأمر ليس كذلك. الهوية الأفريقية عند عبد الله الطيب تتجاوز السحنة والتركيب البيولوجية كسائر أهل السودان الشمالي حيث الجينات العربية ممزوجة بدم الزنوج الحار مع تفاوت هذه النسبة وتلك بين هذا وذاك، إضافة إلى لقاح الغابة والصحراء في النزعة والمزاج. بدايات عبد الله الطيب مع علم النحو وحتى شرح المعلقات - أصول الشعر العربي -- في الخلوة كانت على يد الحاج آدم وهو أفريقي السمات من جهة شاد. والنكهة الأفريقية واضحة في تحمسه للقادرية بطبولها الهادرة، ويعلق عبد الله الطيب ساخراً من عبارة وردت في كتاب كليلة ودمنة تقول أن الطبل أجوف و لا طائل منه، فيقول كيف يكون لا طائل منه ودقاته محاكاة للقلب. انظر إلى ابن.المجذوب كيف ينقل من القلب إلى القلب أنين الطبل:

و هنا حلقة شيخ يرجحنُ
يضرب النوبة ضرباً فتنُ
ثم ترفض هديرأ أو تجنُ

و يمتزج الذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم وهدير الطبول
وكاميرا المجذوب تصور حلقات الذكر.

والمقدم، قد تقدم
يقرع الطبل علماً
صلاة صلاة يا ربي،
صلاة صلاة على النبي.
و انحت حلقة حين انحنى
و الطبل نازاً تضرع.

ذلك الطبل الذي كان رمزاً مهماً في قلب رواية الجذور - تلك الملحمة الإنسانية الرائعة للكاتب الأميركي أليكس هيلي.

نزعة عبد الله الطيب الأفريقية لم تكن ميلاً عاطفياً وحسب، وإنما ممارسة تطبيقية، فبينما كانت الهجرة عند غالبية المتعلمين نحو المشرق العربي حيث (البترو دولار) كانت هجرته للمغرب في الشمال الأفريقي وإلى بلاد الزنج في نيجيريا حيث قضى السنوات الطوال حاملاً رسالة الإسلام العربية، ومساهماً في إنشاء وتأسيس الجامعات والصروح العلمية، مواصلاً أمجاد فاس، وتمبكتو، والقيروان، فقد أسهم بروفيسور عبد الله الطيب في تأسيس جامعة عبد الله بابيرو في نيجيريا ليشتع نورها الإسلامي في بلاد الهوسا والبرنو وسائر أفريقيا. كما أسس مع مجموعة من طلابه منبراً خاصاً بالتأثير العميق للثقافة الأفريقية في الكون النفسي للسودانيين. كان أيضاً عضواً في هيئة تحرير الموسوعة الأفريقية بجمهورية غانا تلك الدولة الأفريقية ذات الغالبية الأفريقية المسلمة و ما بها حتى أية أقلية عربية. و يصف الإسلام في غانا بأنه إسلام غرب أفريقية - إسلام يختلط بالشخصية فتنصهر فيه وينصهر فيها. إسلام له اعتزاز يقاوم به تعالى

العنصرية الإفرنجية وغزوة التبشير الصليبي. إسلام فيه صوفية وزهد وبساطة وقوة وتحذُّ. وراجع في أصوله لا إلى الفتوح وصراع الخلافة والشيعة والسنة والشراسة لكن إلى أهل الصفة وأويس القرني وسعيد بن المسيب ومعروف الكرخي ورابعة العدوية وعبد الرحمن التكروري وعبد السلام بن مشيس ومختار الكنتسي ومقاومة التجانية والقادرية للغرب المستعمر المسترق. و في السودان عمل عبد الله الطيب مديراً لجامعة جوبا في العمق الزنجي للسودان بالجنوب الناهض.

يقول عبد الله الطيب أن مما جاء في تفسير سورة الواقعة (ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين) أن المقصود بالآخرين هم مؤمنو أهل السودان أي أفريقيًا. ولا يفتأ البروفيسور عبد الله الطيب يكرر في العديد من كتاباته وأقواله في سير وأخبار أن أصل الكثير من القبائل في جزيرة العرب ينحدر من السودان الأفريقي. يذكر عبد الله الطيب وهو طفل قصة زعيم الشلك نايولو كورو الذي نفاه الإنجليز الى مدينة الدامر إثر قيادته لحركة تحررية وسط الشلك وتمرده على الاستعمار، وكيف أنه اعتنق الإسلام في الدامر وصار يرتدى الجلباب الأبيض والعمامة بعد أن كان يلبس (اللاو)، ومن شدة تعانق الغابة والصحراء في وجدانه أطلق اسم 'الدامر' على إحدى بناته. وهي قصة تتكرر بسناريوهات مختلفة في مختلف مدن و قرى شمال السودان.

خلافاً لقصة ذلك الشاب (المطموس) الذي صور المجذوب رغبته في الانطلاقة والتحلل من تقاليد والتزامات العروبة المقيدة في قصيدة اسمها انطلاقة تصدرت ديوانه الشعري - نار المجاذيب - والذي أهداه لرفيق عمره البروفيسور عبد الله الطيب:

و ليتي في الزوج و لي رباب
تميل بها خطاي و تستقيم
و في حقوي من خرز حزام
و في صدغي من ودع نظيم
و أكرع المريسة في الحواني
و أهدر لا ألام و لا ألوم.
طليق لا تُقيدني قريش
بأحساب الكرام و لا تميم
و أصرع في الطريق و في عيوني
ضباب السكر و الطرب الغشوم
و لي شرف و ما جدوى صياحي
بفخر ليس يشربه النديم
و أرتضع السجارة و هي أنثى
تأوه في يدي و تستنيم
بقية نجمة قصوى أراها
حيالي و الرهاذ لها غيوم
و لا ألقى بها إلا هباء
أبرها من القدم النسيم

وبروفيسور عبد الله الطيب حين يحلل كلمة مريسة (جعة تصنع من الذرة)
يرجعها إلى أصلها العربي و يذكر أنها من مرس يمرس الذرة أي ينقعها في الماء،
وهكذا تنتسب المريسة للعروبة ورغم إكثار الغابة من تعاطيها فإن الصحراء متهمة
وفق هذه الرواية بجلبها. و مما يروى أن امرأة صاحبة خمارة، (ست عراقي)، أتت

لمقابلة بروفيسور عبد الله الطيب بمكتبه عندما كان عميداً لكلية الآداب بجامعة الخرطوم وهي تشتكى طالباً كان قد استدان منها خمرأ ولم يف بدينه فأسف بروفيسور عبد الله الطيب لذلك السلوك المركب الإشانة من الطالب وقام بتسديد المبلغ عنه ثم أرسل إليه أحد المقربين لينصحه بالتزام الدين و قضاء الدين مما كان سبباً في إصلاحه وصلاحه.

النظام القبلي الزنجي مثل الأنظمة القبلية البسيطة، رغم بداوتها فإن بها التزاماً أخلاقياً نبيلاً، ولكنه ضعيف في مواجهة الأعراض الجانبية للمدنية الحديثة خاصة إذا لم يدعم بالتزام ديني قوي.

هذا ما يظهر في رأى ألان باتون على لسان آرثر جارفيس (الرجل الأبيض) ذلك البطل الضحية في رواية (ابك يا بلدي الحبيب) عندما قال: لقد كان النظام القبلي بقدر ما فيه من خرافات نظاماً أخلاقياً. إن مواطنينا السود اليوم يصنعون المجرمين، ليس لأن من طبيعتهم فعل ذلك بل لأن نظامهم البسيط القائم على الانضباط والتقاليد قد اتهار. لقد اتهار بفعل مدنيتنا نحن، لذلك فعلى مدنيتنا واجب محتم هو بناء نظام آخر يقوم على الانضباط و التقاليد. لقد حان الوقت الآن.

وفي نفس الرواية جاء على لسان القاضي الأبيض مخاطباً الشاب الأسود البطل الضحية المدان بقتل رجل أبيض: أحكم عليك يا أبلوم كومالو بالشنق حتى الموت عسى أن يتغمدك الله برحمته. وعبارة عسى أن يتغمدك الله برحمته هي تعبير حقيقي ووخزة ضمير في إنسان القاضي الذي يدفعه النظام لتطبيق قانون لا ينسجم مع سجيته.

الآن و بعد انهيار النظام القبلي فإن أعلى نسب الإصابة بالإيدز في جنوب أفريقيا (٧٠% من مجموع حالات العالم)، أحد أبناء مانديلا توفى بسبب الإيدز في أخريات العام ٢٠٠٤. كما صرح مانديلا بأن ثلاثة من أفراد أسرته مصابون

بالأيدز، وأعلى معدل عالمي للجريمة الآن في جوهانسبرج، فأي نظام يمكن أن يقدم الحلول المناسبة لهذه الأوضاع الرديئة مع استحالة الرجوع للنظام القبلي؟ مانديلا لم ينج من الاتهام بالتقصير في حملة محاربة الأيدز أثناء فترة رئاسته وربما كان انشغاله بإرساء دعائم الديمقراطية والحرية وراء ذلك، وإذا الحبيب أتى بسيئة أنت محاسنه بألف شفيح .

النظام الديني وفي قمة هرمه الإسلام هو الحل الأمثل لأنه يركز على نظام الأسرة وليس القبيلة، والنظام الأسري يمكن أن يوجد في أكثر الدول الإسكندنافية حضارةً والتي تلاشت فيها آثار القبيلة حتى من الحامض النووي (DNA)، كما أنه يوجد في أكثر الدول الأفريقية تخلفاً. فالأسرة مثل الخلية في البناء الجسمي، في نواتها تتبلور القيم والأخلاق التي تحكم وتتحكم في نشاط الساييتوبلازم، وعلاقاته مع الخلايا الأخرى وسائر المجتمع. وأسرة أعمامها من عرب الصحراء وأحوالها من زنوج الغابة أو العكس لها من الإنزيمات ما يذيب أقسى العناصر القبلية وأعسرها هضماً.

قال عبد الله الطيب: (كنا ونحن تلامذة نكره الاستعمار، ولكن يا للأسف كانت ثورتنا في ذاتها جزءاً من الاستعمار وحركاتنا الوطنية قد نبعت من هذه الثورة في أساسها. عنصر الأصالة فيها كان الغضب وحده، وهو الشيء الأصلي النابع من الأعماق، المندفع به صدق الشباب، صدق الشباب الحي الجميل. لم تكن في النفوس حقاً ثورة على معدن حضارة الاستعمار. حتى الحماسة الدينية كانت تنظر إلى زمن عمر بن الخطاب، والوليد بن عبد الملك، وهرون الرشيد وتستمد من ذلك روح استشعار البطولة والمجد والكفاح. كانت ترغب في تطوير الحياة العربية لتتحدى الحضارة الغربية بزخرف كزخرفها مستعار منها، فانظروا والله

لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز. (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) (الشورى: ٢٠) وقد وعد الله عباده الصالحين المستضعفين ميراث الأرض كما ورث خالد، وسعد دولتي الفرس والروم لا بعقلية فارس والروم ولا بمعادن حضارتها).

رأى عبد الله الطيب هذا يكون واضحاً عندما يزول عنصر الغضب من الثورات، و يتحول الثوار وقادة حركات التحرير إلى ساسة، إذ سرعان ما تتسع الهوة بينهم و بين الشعوب فتصاب الدول بحالات من الخلل تكاد تكون متشابهة في مختلف البلاد، تماماً كالمتلازمة الطبية (السندروم)، أعراض وعلامات مرضية متشابهة لأسباب مختلفة في مرضى مختلفين. والتاريخ مليء بالأمثلة منذ الثورة الفرنسية التي أكلت بنيتها وحتى آخر الانقلابات التي اختلف قاداتها مع مدبريها ومنظريها. وبناءً على هذا كان نيلسون مانديلا في غاية النبيل والإدراك لهذه المعاني عندما رفض مواصلة الحكم ليعطى الفرصة لمن هو أكثر مواكبة. قال أنه لا يريد أن يتحول إلى تحفة سياسية بعد أن أمضى ربع قرن من الزمان في السجن. والسجن حسب رأيه نقطة سكون في عالم متحرك.

جمال محمد أحمد ذلك الدبلوماسي الأديب أشار في كتابه عرب و أفارقة وتحدث كثيراً عن الشئون والشجون العربية والأفريقية وما كان في الجامعة العربية أو المنظمة الأفريقية. و جمال بانتمائه و ثقافته العربية ومعرفته وميولاه الأفريقية كان مرجعاً و مستشاراً في هذا الشأن مما صادف نفس الهوى والتوجه عند عبد الله الطيب عليهما رحمة الله و قد رثاه في قصيدة طويلة منها:

ذكرت جمالاً صديقي درج وكم لجمال الحياة ابتهج
وكان فتىً ذهتبي الحيا يرى فيه ضوء الحياة انبلج
وعشنا زماناً وراء البحار وجر الشباب شديد الوهج
ونقرأ في شغف لا نمل بذوق سليم و فكر نضج
نعوا لي جمالاً صديقي الفطن وجنت الصلاة فقالوا دفن
بكيت عليه بدمع غزير وقلبي لموت جمالٍ حزن

النظرة السطحية العابرة لتأريخ أفريقيا الحديث توحى بالانتقال المباشر لأفريقيا الزنجية من حياة الغابة والأدغال إلى الارتباط الأوحـد بالحضارة الأوروبية الحديثة سواء كان ذلك في الرحلات والمغامرات الاستكشافية، أو الاستعمار الأوروبي بأشكاله التقليدية، دون أي ذكر لتأثر أو ارتباط بالحضارة العربية أو الثقافة الإسلامية. ولكن جمال محمد أحمد - وأمثاله فقط هم الذين يلفتون الأنظار لذلك - يقول العالم الدبلوماسي جمال محمد أحمد: "على الشباب العربي أن يقتفي آثار هذا الأندلس الأفريقي قبل أن تعفى عليه رمال الأيام و تدخل الكثير من الكتب والمذكرات والرسائل العديدة التي كتبها الرحالة و المبشرون والقناصل الأوروبيون ضمير العالم كله على أنها هي وحدها سجل الحوادث هناك، وما هي حتماً كذلك، كتبت كلها بأعينهم، وكان صعباً عليها أن ترى حسنةً في العرب الذين عاش منهم رجال في أفريقيا تلوح صورهم خلال كتابات الأوروبيين زاهية مليئة بالألوان تغريك بالبحث، أفراد من العرب اقتحموا هذه المجاهل من سواكن و يوغندا في الشمال إلى نياسا في الجنوب لا تسندهم حكومة و لا تعضدهم جماعة، سعيد بن جمعة، سالم محمود بن خميس بن بهلول، وعشرات غيرهم من أهل التجارة والسياسة في إقليم يوغندا الحديث، و محط بن خلفان، و بوانا عمر، والشريف

ماجد وغيرهم من أهل الحذق والمال في نياسا الحديثة وتتنانيقا، و سليمان بن زبير رسول السلطان برغاش في زنجبار الذي كان يقطع القارة من شرقها إلى غربها للتجارة حيناً و للنفوذ حيناً آخر. وسيدهم كلهم الذي أذاق ليوبولد ملك البلجيكي مر العذاب، طَبْطُوب كما تسميه مصادر الفرنجة، الرجل الداهية البصير بكل شبر في الجبال والغاب والبحيرات". و يسترسل جمال محمد أحمد في نشره باكياً الفردوس الأفريقي الموجود كما استرسل محمد أحمد المحجوب في شعره ناعياً الفردوس الأوربي المفقود، فيقول جمال: "كان للعرب إصدار الأمور وإيرادها في الداخل البعيد من الساحل الأفريقي حين جاءت طوائف المبشرين حداة النفوذ الأوربي، حملة أعلام الشركات والحكومات، واحتدم الصراع حيناً بالسلح وحيناً بالماكرة، وواضح من سجل الحوادث الذي تركه الأوربيون أنفسهم أن الغلبة كانت في البداية للعرب فقد كانت المعركة معركة حذق ودراية ومداجاة وكان أولئك النفر من العرب هم قطان البلاد وأحلاف الزعامات والقبائل. تساءل القنصل البريطاني في يوغندا عشية الانقلاب العربي في أكتوبر ١٨٨٨ وقال هذه حوادث منكرة، علينا أن نقف عندها ونساءل أنفسنا أي قانون يسود وسط أفريقيا؟ القانون الأوربي أم العربي؟" ... ولنا أن نتواجد بكاءً مع جمال و نحن نرى ذلك الإرث و لم يبق منه إلا النذر القليل من الصفات والأسماء المختلطة بالكنات الأفريقية كطبقات الأرض الرسوبية مثل رتشارد حسن، فيليب عباس غبوش، وفي يوغندا إيدى أمين دادا الذي كان تعامله مع الأوربيين طابعه التفشي والانتقام - (و من فش غبينته خرب مدينته) - رغم عقيدته الإسلامية على عكس تعامل نيلسون مانديلا غير المسلم الذي أثر التسامح (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (الشورى: ٤٣)، بينما فات على إيدى أمين - الزعيم الأفريقي المسلم - التعامل

بهذه الآيات من سورة الشورى كما فانت عليه الشورى نفسها، شأنه شأن الكثير من حكام الزنج والعرب المحدثين الذين يمارسون الحكم التسلطي عبر نظام ديكتاتوري يطلقون عليه مجازاً اسم النظام الشمولي.

كان كثيراً ما يطيب للبروفيسور عبد الله الطيب البقاء مع جمال محمد أحمد، وهم بعد زملاء دراسة في الخرطوم ولندن وكثيراً ما أعجب بثقافته وأفكاره وهو يخاطب وجدانه الإسلامي الأفريقي العربي الزنجي. يكتب جمال عن بعض النواحي التي يتجاهلها الأوروبيون في كتاباتهم عن التاريخ الأفريقي: "كانت هجرات العرب في السودان القديم الممتد بين النيل والنيجر متقطعة ولكنها اتصلت اتصالاً واسعاً فيما بعد فأتسع نطاق التجارة والهجرة والاستيطان. فبعد أثر العرب في حياة الزنج وعمق. ما كان مجيئهم للإغارة كما فعل البربر قبلهم ولا للإقامة الهاربة من الاضطهاد كما فعل اليهود والبربر المتهودين حين شق عليهم العيش مع الروم. كان التجار والمهاجرون العرب يحملون رسالة و يتحدثون لغة مرموقة، واتخذت آثارهم هذه سمتها القوية التي بقيت لليوم في سحنة الكثيرين و دين الأكثرية الأفريقية". (نفس الأفكار أشار إليها نيلسون مانديلا في محاضرة عن الإسلام بأكسفورد عام ١٩٩٧ - ما تزال بقايا حيثياتها موجودة في الإنترنت)، ولغة الأقلية (مثل عربي جوبا الرابط اللغوي الوحيد بين الزنج في جنوب السودان). خضع المزيج الذي تكون من بربر وزنج لسلطان العرب الفتى فاستأثروا بالتجارة والثقافة والحكم لا يشاركونهم أحد. وتري آثار هذا في التكوين الجسدي فالدم الغالب شمال السنغال والنيجر هو الدم الخليط من الزنج والبربر والعرب. والدين الغالب هو الإسلام. ثم يغلب الدم الزنجي جنوب هذين النهرين وإن كنت ترى حتى يومنا هذا الأثر الذي تركته تجارة القادمين العرب ودينهم وعاداتهم، رغم القرون التي مضت

على تلك الصلة. ما أكبر حاجتنا في هذا الزمن للكتاب والمفكرين أصحاب الرسائل من أمثال جمال محمد أحمد، رحمه الله، أو على الأقل إعادة نشر كتاباته والتي تتناول الهوية الأفريقية العربية بحكمة بالغة. مجرد ذكر عناوين مؤلفاته يوحى بما كان يحمله هذا الرجل العظيم من رسالة تضعه هو الآخر في مصاف مانديلا وعبد الله الطيب، فمن هذه المؤلفات: سالي فو حمر (رواية من دارفور) ١٩٧٠، مطالعات أفريقية ١٩٦٨، عرب و أفارقة ١٩٧٧، المسرحية الأفريقية ١٩٧١، هذا بالإضافة لعمله كأستاذ زائر لدراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفرد الأمريكية معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بالخرطوم وعمله كمؤسس للإنسايكلوبيديا الأفريقية بمقرها بغانا.

يندر أن يوجد في العالم العربي نظير للبروفيسور عبد الله الطيب في عظيم إمامه و سعة استيعابه للثقافة الإنجليزية وآدابها، و خاصة الأدب الإنجليزي والشعر الإنجليزي. ولكن برغم ذلك فقد ظل عبد الله الطيب يؤمن بتفوق الثقافة الإسلامية واللغة العربية وآدابها وخاصة الشعر العربي، ليس من باب التعصب الأعمى ولكن لعبد الله الطيب رأيٌ مستتير في هذا الصدد قائم على أركان متينة من الدراسة والنظر والتحصيل.

إحدى الصور الجميلة و قد بدا فيها مانديلا وهو يرتدي جلباباً مرقعاً فضفاضاً و طاقية ذات نكهة إسلامية وكأنه أحد المسلمين الأفارقة، ولو دخل وسط الدراويش في الشكينية - قرب المناقل — و أتباع الشيخ المكاشفي أو في حلقات الشيخ حمد النيل لما استطاع أن يميزه أحد.

مجمل القول أن مانديلا ورفاقه دعاة تنقصهم الدعوة في الوقت الذي صار فيه الإسلام في العالم العربي دعوة ينقصها الدعاة.

السياسة السلطة الجاه

كان عبد الله الطيب زاهداً في السياسة، و يناصر مناصبها المغرية العداء برغم قربها منها وتقربها إليه. فقد كان من تلامذة الزعيم اسماعيل الأزهرى، رحمه الله، كما عمل معه زميلاً ومدرساً في مدرسة واحدة، وكانت العلاقة بينهما مستمرة حتى بعد تولى الأزهرى مختلف المناصب الرئاسية، وكان الأزهرى يدعوه في بيته كلما زاره احد رجالات التعليم من الإنجليز. كما أنه كان زميلاً وصديقاً للكثير من السياسيين وقادة الشعوب الأفريقية أثناء فترة الدراسة بإنجلترا وخاصة في منطقة (Nutford and Marbel Arch) وازداد نفوره وزهده في السياسة بعد اغتيال بعض من هؤلاء الأصدقاء السياسيين إثر خلافات سياسية في نيجريا عام ١٩٦٦.

و مراد النفوس اكبر من أن نتعادي فيه أو نتفاني

و يقول: أذكر لما كنت بإنجلترا أعد لدرجات شهادتها أن منزل حركة الطلاب في شارع غاور كان يعج باليساريين على مذاهب غرب أوربا وشرقها وبين ذلك. وكانوا كلهم ينصرون دعوة الصهيونية على شكاوى العرب بحجة أن العرب إقطاعيون متأخرون. وكان معنا طلبة من غرب أفريقية. فكان الميل إلى جانب بني قريظة عندهم كما كان عندي أمراً منكراً. و يستطرد قائلاً "إن الزعيم الأفريقي كوامي نكروما ولد مسلماً في ناحية "كماسي" من ساحل الذهب واختطف ونُصِّرَ ومع ذلك يُسَرَّ (صار يسارياً) وهذا عند المبشرين لا يناقض الصليبية

وصار عدواً لإسلام غرب افريقية وتآمر سرّاً وجهرّاً ضد قاداته وكان مقتل أحمد بيلو وأصحابه هدفاً.

ورغم أن عبد الله الطيب كان لا ينتمي إلى تيار سياسي معين فإن العديد من الساسة كانوا يلتفون حوله لأنه كان يقرأ تأريخ أحزابهم و يستقرأ مستقبلها قادنا الأنس معه يوماً في أغسطس ١٩٨٨، و بحضور الإخوان الناشطين فكرباً، الأخ أحمد مساوي، الموظف بالسكة الحديد، والأخ الدكتور منتصر الطيب الباحث بالمعمل القومي الصحي، الى حديث مطول استطرد البروفيسور عبد الله الطيب فيه عن النظرية الاشتراكية من مختلف نواحيها وكان قد تتبأ في ذلك اللقاء بانهيار الاتحاد السوفيتي، على يد جورباتشوف وكان يعرف أن والدته يهودية الأصل. وعموماً فإن عبد الله الطيب كان ضد (عقلية القطيع) التي تتبعها معظم الأحزاب السياسية اليساري منها و اليميني، لا سيما في هذا الوقت الذي تناسى فيه السياسيون وأتباعهم ما تمليه عليه ضمائرهم الفردية و اعتمدوا بصورة كلية على ضمير الجماعة مع أن المسؤولية، حسب مفهوم الدين، شخصية والحساب فردي، (لقد أحصاهم و عدّهم عدّاً (٩٤) و كلهم آتية يوم القيامة فرداً) (٩٥) سورة مريم.

في نيجيريا منحت جامعة بابيرو بكانو الدكتوراة الفخرية للدكتور عبد الله الطيب و الدكتور نيلسون مانديلا عام ١٩٨٧ و في يوم الإحتفال استلم عبد الله الطيب الشهادتين و ألقى كلمة شكر أصالة عن نفسه ونيابة عن زميله نيلسون مانديلا الذي كان وقتها رهين المحبسين السجن والعنصرية، والصورة الملحقة في هذا الكتاب لعبد الله الطيب مرتدياً روب الجامعة كانت لهذه المناسبة، لحظة إلقائه الخطبة، وقد تفضلت بها علينا السيدة الفضلى قرزيلدا حرم عبد الله الطيب كما

تفضلت بهذه المعلومات في إطار العلاقة بين مانديلا وعبد الله الطيب فلها الفضل
وعليها الشكر، لأن هذه المعلومات عن نيل الرجلين الدكتوراه الفخرية من جامعة
أفريقية و تكريمهما معاً في وقت واحد تضيف إلى رحلتنا عن الرجلين بعداً جديداً
و تدعم فكرة الكتابة عن هذين العظمين في سفر واحد.

لقد كان عبد الله الطيب معلماً أكاديمياً موسوعياً واسع الإطلاع يعرف كل
شيء عن كل شيء، أجرينا معه لقاءً مطولاً في مجلة السديم التي كان يصدرها
بعض الزملاء من الباحثين في المعمل القومي الصحي، (معمل ستاك)، عام ١٩٨٨
تحدث فيه بإسهاب عن نظرية التطور وكأنه دكتور في البيولوجي ولم ينس أن
يستشهد ببعض الأشعار العربية القديمة حتى في هذا الشأن البيولوجي البحث وقال
كان جرير قد سبق داروين في ربط الإنسان بالقرود حين قال يهجو الفرزدق:

و هل كان الفرزدق غير قرود أصابته الصواعق فاستدار

كما اورد قول الإعرابي القديم و هو يشبه مراحل الجنين بمراحل التطور في لغة
عربية صعبة شرحها أو بالأحرى ترجمها لنا:

قد أحصنت مثل دعاميص الرنق أجنة في مستكنات الحلق

دعاميص جمع دعموص وهو شيء مثل الدودة أو طور الضفادع الرنق هو
الماء المبتذر. أثناء كتابة مسودة هذا الكتاب وضع الكمبيوتر خطأ أحمرأ تحت كلمة
دعاميص، وبالتأكيد لو كان البروفيسور عبد الله ضمن مصطلحي برنامج التدقيق
الإملائي لبرامج الكمبيوتر لما وضع خطأ أحمرأ تحت هذه الكلمة ولوضع خطوطاً
حمراء تحت العديد من الكلمات الأخرى.

و مما أذكره في ذلك اللقاء أن البروفيسور قال إن أكثر تطور العالم في
الأونة الأخيرة كان في مجال الطائين، الطب والطيران، و صادف أن كانت زوجته
تجرب بعض الفحوصات والعلاجات لمفصل في رجلها فتحدث عن التشخيص
الطبي بتفصيل دقيق وهو يذكر المصطلحات العلمية التي لا يعرفها إلا
الأخصائيون. وهو يذكر الطيران ذكرنا قصيدته الرائعة في حفل تأبين حافظ
ابراهيم عندما سافر حينها بالطائرة والطائرات قليلة في ذلك الوقت من أربعينات
القرن العشرين وكشأن فحول الشعراء العرب الذين يستهلون قصائدهم بوصف
المطايا اللاتي أتين بهم فقد استهل قصيدته الرائعة في تلك المناسبة بوصف رصين
للطائرة:

أقول وحلقت في الجو عسُ رداحُ الشأومترزة الحديد

يقعقع في الصماخ الجو منها ويرعش بونها كبد الجليد

كان للوزير جنيد الفلاتي - من أصدقاء عبد الله الطيب - أبياتاً في وصف

الطائرة التي ارتحل بها من نيجيريا إلى الخرطوم في الخمسينات من القرن
الماضي يقول فيها:

يا من يصعد أنفاساً بأنفاسي

شوقاً لخرطوم ذات الورد والآس

صبراً فإننا قريباً سوف يحملنا

رعادة في الهواملحومة الراس

تعطسي الدخان و تنهي عن تعاملنا

به عليها وهذا خلف مقياس

أما ذكريات نيلسون مانديلا مع الطائرة في ذلك الوقت أيضاً كان لها ما

بعدها فقد أورد أنه وعندما كان يصعد سلم الطائرة في مطار الخرطوم متوجهاً

الى أديس أببا عام ١٩٦٢ لاحظ أن كابتن الطائرة أسود اللون فأوجس في نفسه خيفة مانديلا ثم استدرك قائلاً بهذه الطريقة، سأكون أنا نفسى عنصرياً، كما ذكر أنه استقل في نفس تلك الجولة الأفريقية و قبيل دخوله السجن طائرة من المغرب الى مالى و منها الى غينيا فكانت ممرات الطائرة مليئة بالدجاج و كانت النساء يبعن الفول السودانى داخل الطائرة و بما أن حلم الجوعان عيش فقد وصف تلك الرحلة بأنها ديمقراطية.

نيلسون مانديلا ورغم ما انتهى إليه من مجد سياسى ورغم ما بدأ به من نشأة فى بيت والده الزعيم الصغير وانتقاله بعد و فاته الى بيت السلطان الزعيم الكبير و رغم دراسته للقانون كان هو الآخر زاهداً فى السياسة و يبدو أن الظروف هى التى أجبرته عليها، و يتضح ذلك فى قوله: (لم أقل لنفسى فى لحظة ما أننى من الآن فصاعداً سأكون فى خدمة تحرير قومى و مناهض للعنصرية ولكنها آلاف الإهانات وآلاف الإستخفافات وآلاف اللحظات المنسية تجمعت وتراكمت لتثير فى نفسى ذلك الغضب و روح التمرد). و شخصية مانديلا وحنيفيته السياسية تتجلى فى انطباعاته و آرائه عن بعض زملائه فى التنظيم، فقد كان معجباً بزميل مناهض للعنصرية هو بيتر أموا ووصفه بأنه شخص منضبط ودقيق فى تعامله، وواضح وعلمى فى أفكاره وهو عنده مخالف لميدى الذي كان يجنح للعموميات والإنشاء فى حديثه وأفكاره. لا أدري ماذا سيكون رأى مانديلا إذا استمع الى الكثير من خطبنا السياسية ابتداءً من البيان الأول و التمدادى فى انشاء الكلام والجمال فى عصر الديجتال و الأرقام، كما أنه انتقد الدكتور زوما رئيس الحزب لأنه كان يحيط نفسه بهالة مفرطة من التعالي، الشيء الذي لا يليق بزعيم حركة

شعبية في نظره. و مانديلا بميزانه العلمي، و رصيده الأخلاقي أنقذ كلمة سياسة بعد أن كادت تصنف مع كلمة نفاق في قاموس المعاني.

فلا تخدعك السنة عذابُ بواطنهن فيهن السمام
و دع عنك السياسة إن منها ريعاً نبتة القوم اللئام

هذه مقاطع من قصيدة للبروفيسور عبد الله الطيب، يظهر فيها رأيه القاطع في السياسة بشقيها اليميني واليساري، ومنها أيضاً:

و ما يبغي الشيوعيون إلا وقود الحرب إن قالوا السلام
و ما يبغي الهدى "الأخوان" يوماً و إن لبسوا مسوحهم و آموا

ورحم الله صديقه وصنوه الفكري جمال محمد أحمد، الذي يشاركه رأيه وانطباعه عن السياسة، لأنه وبالرغم من عمله كوكيل ومن ثم وزير للخارجية، إلا أنه بلغ هذه الناصب كمتدرج مهني من أصغر الوظائف في السلك الدبلوماسي وليس متسلقاً سياسياً. كتب مرة عن التحالفات السياسية بين العسكرية والدين وما تبع ذلك من انقلابات وممارسات للحكم لازمها الفشل في شأني الدين والدنيا، واستشهد بهذا البيت من الشعر:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى و لا ما نرقعُ

السلام الجمهوري بصورته الحالية، كان الزعيم الأزهري قد أوكل لعبد الله الطيب عمله، فاختار بعضاً من كلماته (نحن جند الله جند الوطن) للشاعر أحمد محمد صالح، وأتمهن بأخرى لشاعر من سنار لا يذكر اسمه ثم اعطاه للعم أحمد مرجان الذي كان يدرسهم الموسيقى بجمعية الموسيقى بكلية غردون التذكارية فوضع نصه العربي في لحن خماسي الأنغام حماسي الإيقاع الأفريقي. ويضيف البروفيسور عبد الله الطيب أن الزعيم الأزهري كان رئيساً لهذه الجمعية.

نحن جند الله جند الوطن

إن دعا داعي الفداء لم نحن

نتحدى الموت عند المحن

نشترى المجد بأغلى ثمن

هذه الأرض لنا

فليعيش سودانا

علماً بين الأمم

يا بني السودان هذا رمزكم

يحمل العبء و يحمي أرضكم

هذه هي الأبيات التي يرددها الشعب السوداني والتي اختارها له

البروفيسور عبد الله الطيب من قصيدة للشاعر الوطني أحمد محمد صالح، والتي

جاء فيها أيضاً

نحن أسد الغاب أبناء الحروب...

لا نهاب الموت أو نخشى الخطوب...

نحفظ السودان في هذي القلوب...

نفتديه من شمال أو جنوب...

بالكفاح المرُّ والعزم المتين...

وقلوب من حديد لا تلين...

نهزم الشرَّ ونجلى الغاصبين...

كنسورِ الجوّ أو أسدِ العرين...

ندفعُ الرّدى. نصدُّ من عدا. نردُّ من ظلم

في حفل تنصيب مانديلا كأول رئيس من السود لجمهورية جنوب أفريقيا
وقف هو و نائبه الأبيض دو كلارك فعزفت الفرقة الموسيقية السلام الجمهوري
مرتين، إذ كان للأفرقة نشيد يختلف عن نشيد البيض في الكلمات واللحن، فعبر
مانديلا عن أمله في أن يأتي اليوم الذي يصير فيه السلام الجمهوري واحداً لكل
فئات الشعب. و قد تحقق أمله هذا فمذ العام ١٩٩٨ صار السلام الجمهوري نشيداً
واحداً موحداً تتادي كلماته أبناء جنوب أفريقيا ليتحدوا مع بعض و يناضلوا من
أجل الحرية في أرضهم المشتركة:

Sounds the call to come together,
And united we shall stand,
Let us live and strive for freedom,
In South Africa our land.

الحديث عن السلام الجمهوري يقودنا للحديث عن العلم، فعلم جنوب أفريقيا
به حزمة ألوان، أخضر، أحمر، أصفر، أسود وأزرق تدل على تشكيلة البلاد من
عدة قوميات مختلفة، كما تدل على حب الأفارقة لألوان الحياة الزاهية، التي نراها
أيضاً في ألوان قمصان مانديلا البسيطة الجميلة والتي تشبه قمصان مهاتير محمد
الرئيس الماليزي المسلم الشجاع، ذلك التشابه الذي يمتد من المظهر الجميل الى
الجوهر النبيل. والظهور الحديث لماليزيا كقوة تكنولوجية مع زميلاتها من دول
الشرق الأقصى بقيادة اليابان فيه بعض العزاء عن هيمنة التكنولوجيا الأروأميركية
ومنه تبديل عن صناعات الغرب المرتبطة بالخطرة والاستعمار. وكثيراً ما ترنم
عبد الله الطيب و أبناء جيله بقصيدة حافظ ابراهيم: أنا يابانية:

أنا يابانية لا انثنى عن مرادى أو اذوق العطباً
هكذا الميكاد قد علمنا أن نرى الأوطان أماً و أباً

مع التطور المطرد لليابان في مجال التقنية اضطر نظام الأبارتيد بتفرقة العنصرية أن يصنف اليابانيين ضمن مجموعات البيض، بينما أبقى مجموعات ودول أخرى مطابقة لهم من حيث السحنة المورفولوجية والجهة الجغرافية ضمن مجموعات الملونين، ولو أن هذا النظام استمر حتى الآن لاضطر لإضافة دول أخرى مثل ماليزيا وكوريا الجنوبية للبيض. الشعب السوداني كان سباقاً، غير أن تصنيفه لهذه الدول كان طبقاً لمعايير أكثر أخلاقية ومسئولية أمام الضمير الإنساني فجاء ذلك في شكل تضامن مع حركات التحرير في تلك الدول الآسيوية، فعلى سبيل المثال أطلق اسم كوريا بعض الأحياء الشعبية في المدن السودانية، وحتى الأغاني الشعبية تجاوزت مع تلك الدول و تفاعلت معها بعفوية تنم عن فطرة سليمة تناصر المظلوم مهما بعدت الشقة واختلفت الهوية. حيث غنوا باللغة العامية (الله لى كوريا يا شباب كوريا) والفصيحة:

فلتغسليني في ثلوجك يا كـوريا
ولتقذي البركان فوق شتائي
حتى تغطي الأرض من دما لظي
فالأرض لما تصطبغ بدمائي

التعريف العرقي للأفراد والأسر والتصنيف ضمن البيض كان من ضمن القضايا التي تنظر فيها المحاكم في الولايات المتحدة الأمريكية، و يقرر على أساسه حق امتلاك الأراضي وغيرها من امتيازات لا يسمح بها القانون العنصري إلا للبيض. كان هذا الوضع حتى منتصف القرن العشرين وكان كثير من المهاجرين لأمريكا من دول أوروبا الشرقية وآسيا لا يستمتعون بحقوق البيض،

خاصة فيما يتعلق بتمليك الأراضي، رغم لونهم الأبيض الذي يضعهم في منزلة أعلى من السود في امتيازات أخرى كثيرة.

علم السودان القديم بألوانه الأزرق و الأصفر والأخضر والذي يجمع بين الغابة والصحراء تحت سماء واحدة كان أقرب لمنظمة الدول الأفريقية من العلم الحالي، وألوانه التي تشابه معظم ألوان أقطار جامعة الدول العربية، والتي يخشى الكثيرون من أننا نعيش معها قصة حب من طرف واحد. ما زال نشيد العلم (القديم) يحتل مكانه بين أناشيد المدرسة الابتدائية في ذاكرة الملايين من أبناء الغابة و الصحراء:

عَلِمِي أَنْتَ رَجَائِي أَنْتَ عِوَانُ لَوْلَائِي
لَوْنُكَ الْأَخْضَرُ زَرْعٌ لَوْنُكَ الْأَزْرَقُ مَاءُ
لَوْنُكَ الْأَصْفَرُ أَرْضٌ يَفْتَدِيهَا الْأَوْفَاءُ

السياسة وحدها لا تكفي لاستيعاب المشاهد الفريدة واللقطات المتناقضة في دراما حياة نيلسون مانديلا منظره وهو بملابس السجن الرثة يكسر الأحجار أو يحمل معوله بيده الخشنة التي خدشتها المجارف عبر تلك السنوات الطويلة من السجن مع الأعمال الشاقة ثم منظره وهو في وسط ستاد ويمبلدون ببريطانيا وقد احتشد مئات الآلاف من الجماهير الأوروبية يتقدمهم أشهر فناني العالم في حفل ضخم يقام على شرفه أو منظره وهو يشق شوارع نيويورك على سيارة مكشوفة تحمله داخل صندوق زجاجي لم يستغلها قبله أحد غير البابا، وسط مليون إنسان بألوان الطيف الأميركي يزاحم بعضهم بعضاً لتحيته و تلقى نظرة منه أو بالكاد إلقاء نظرة عليه و هكذا في مدن أخرى من عواصم العالم من القاهرة الي دار السلام الخ نعم هو نفسه مانديلا الذي كان قبل أيام يخرج من

زنزانتة صباح كل يوم حاملاً (الإناء الصحي) و به فضلات الإنسان ليذهب به إلى دورات المياه ليفرغه و ينظفه بنفسه، وهى لحظات، رغم ما بها من اشمئزاز، يشتااق لها كل السجناء لأنها فرصتهم الوحيدة لتبادل بعض الكلمات والأخبار على عجل فهي الفرصة الوحيدة التي لا يرافقهم فيها حراس السجن تقزراً وتأففاً... في تلك اللحظات لا يمكن أن يخطر بقلب من يقرأ مذكرات مانديلا - ناهيك عن من عاشها - أنه وبعد صفحات قليلة ستأتي لحظات وأيام تتهافت فيها كبار الشخصيات العالمية لنيل رضا نيلسون مانديلا والتقرب إليه بل يشد إليه الرحال زعماء العالم بما فيهم عزيز أمريكا. - فيقبل منهم من يشاء و يبعد من يشاء - يصافح بيل كلينتون و يعرض عن جورج بوش و يشيح بوجهه عن مارجريت تاشر و يقول إنها تتحدث و تسدى النصائح وكأنها مديرة مدرسة عجوز.... وتقبله الملكة اليزابيث حيناً و ترسل طوني بلير أحياناً، ولعل من طرائف ما يذكر مخاطبته للملكة أليزابيث بعبارة (عزيزتي اليزابيث) وهو أسلوب لو اتبعه الخليفة التعايشي في مخاطبة الملكة فكتوريا ربما تغير الوضع خاصة وأنها كانت ضد غزو السودان الذي كان يقف خلفه اليهود.... و يسعى فرانسوا ميتران وزوجته لمقابلة مانديلا.... و يسعد جاك شيراك عندما يشبه به ويوصف بأنه مانديلا أوربا لمواقفه ضد حرب العراق و التي أيضاً يقف خلفها اليهود.... وتتحدث الدول الإسكندنافية نيلسون مانديلا بجائزة نوبل للسلام... و تكرمه الهند بجائزة بهرو لحقوق الإنسان.... تحمل العديد من الشوارع الكبيرة والميادين والأحياء في عواصم العالم اليوم اسم مانديلا كما أطلق اسمه على عدد من الجوائز والمنح العلمية. الكثير من المنشآت، وأكثر الكباري أنيقة وأضخمها في وسط جوهانسبرج يحمل اسم مانديلا وقد تم افتتاحه في عيد ميلاده الثاني و الثمانين.... بريطانيا

تنصب له تمثالاً ضخماً وسط لندن ... الرئيس المصري يفتتح معه أضخم احتفال
بمكتبة الإسكندرية بمناسبة إنتاج أضخم فيلم وثائقي عن حياة مانديلا
السياسة وحدها لا لتفسر كل هذا ... و لكن نقرأ في القرآن ... (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ
الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ
بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران: ٢٦)

كثيراً ما تحدثت وسائل الإعلام العالمية عن فيلم ضخم يصور حياة مانديلا
و مسيرته الطويلة من أجل الحرية، نورد عنه هنا ما يلي:

يبدأ خلال العام الجاري تصوير فيلم ملحمي مستوحى من السيرة الذاتية
لنيلسون مانديلا، مما يثير أجواء من الانفعال والترقب في جنوب أفريقيا حيث تكثر
الافتراضات والتكهنات في ما يتعلق بالوجوه، سواء الهولندية أو المحلية، التي
سيتم اختيارها لتجسيد دور البطولة والأدوار الأخرى.

وأعلن منتج الفيلم المخرج الجنوب أفريقي أنانت سينغ الأسبوع الماضي أن
المشاهد الأولى ستصور في منتصف العام ٢٠٠٣ في جنوب أفريقيا. وسيصور
الفيلم المخرج الهندي البريطاني شيوخار كابور الذي وقع فيلم "اليزابيث". وتقدر
ميزانية هذا الإنتاج الضخم بأربعين إلى خمسين مليون دولار.

وسيصور الفيلم بمعظمه (٩٥% منه) في جنوب أفريقيا، بين ترانسكي (جنوب
شرق)، مسقط رأس مانديلا، وسجن جزيرة روبين، وبين سويتو والرئاسة في
بريتوريا (١٩٩٤-١٩٩٩). وتتخلل الفيلم بعض المشاهد التي تجرى في أوروبا.
وأوضح سينغ أن الفيلم لن يتبع بالضرورة خطاً سردياً متسلسلاً في الزمن، بل
سيتضمن على الأرجح استطرادات زمنية وعودة إلى الخلف (فلاش باك).

ولم يعرف حتى الآن سوى وجه مانديلا في سن الشيخوخة، وسيجسده النجم الأميركي مورغان فريمان الذي برز في أفلام كثيرة (منها "سيفن" و"درايفينغ ميس دايزي"). وقد التقى الممثل مرارا رئيس جنوب أفريقيا السابق، وأوضح سينغ أنهما "اتفقا على أفضل وجه".

وقال فريمان أخيرا "يشرفني ويرعيني في آن واحد أن أجسد هذا الرجل، خشية ألا أكون على المستوى المطلوب لذلك". وللتقرب أكثر من مانديلا، كشف فريمان أنهما اتفقا على الالتقاء كلما كانا على مسافة تقل عن ألف ميل الواحد عن الآخر.

وقال سينغ "سيكون هناك على الأرجح ثلاثة ممثلين آخرين يجسدون مانديلا في سن الطفولة والحدأة والشباب حين أقام في جوهانيسبيرج. سنجرى مقابلات في جنوب أفريقيا. وستكون هناك مجموعة كبيرة من المواهب المحلية، إلى جانب الممثلين الدوليين". وهذا الاحتمال يثير انفعالا كبيرا في جنوب أفريقيا. ونشرت بعض الصحف صور شبان يطمحون إلى المشاركة في الفيلم، متذرعين بشبهتهم بمانديلا الشاب أو زوجته ويني، ويرون أنفسهم منذ الآن يساهمون في ما سيشكل حتما الحدث السينمائي للعام ٢٠٠٤، السنة المتوقعة لتوزيع الفيلم على صالات السينما بحسب سينغ. وقال المنتج "إن ويني شخصية فريدة. نحن بحاجة إلى ممثلة يمكنها أن تعكس كل التفاصيل الدقيقة، يمكنها أن تؤدي الغضب، المأساة، وكذلك الحب". وافر سينغ لوكالة فرانس برس بان تصوير حياة رجل استثنائي، شخصية أسطورية على قيد الحياة ورجل الدولة الذي يحظى على الأرجح بأكبر قدر من الاحترام والشعبية في القرن العشرين، هو "مشروع بديع، غير أنه في الوقت نفسه عمل مضمّن". وأضاف "الكل يحس بمشاعر معينة

وشخصية حيال مانديلا وحياته، في تملكه بمعنى ما. وحين ينبغي حشر كل هذا في فيلم مدته أقل من ثلاث ساعات، فإن الأمر ليس سهلاً". وهذا هو تحدياً ما آخر المشروع، فضلاً عن تردد كابور، بعد أن حصل سينغ منذ العام ١٩٩٨ على الحقوق لاقتباس "المسيرة الطويلة نحو الحرية". وفي حين تهافت العديد من المنتجين على سيرة مانديلا الذاتية، وقع اختيار الرئيس الجنوب أفريقي السابق على سينغ، وهو منتج محترم، صاحب العديد من الأفلام الطويلة والقصيرة حول جنوب أفريقيا ونضالها ضد نظام الفصل العنصري، وبينهما "سارافينا" و"ابك يا بلدي الحبيب".

وقال سينغ "إن طلب مني تشبيه الفيلم بفيلم موجود من حيث ضخامته، فسوف أشبهه بالتأكيد بفيلم غاندي" (١٩٨٢). وسئل عن صعوبة تجسيد شخص أسطورة على الشاشة، فذكر بان هذا الفيلم الذي أخرجه ريتشارد اتينبورو اصطدم بالتحديات ذاتها، لكنه كشف للعالم الممثل بين كينغسلي وفاز بثمانية جوائز أوسكار.

توفي الشاعر الكبير محمد المهدي المجذوب ولم يحضر أمجاد نيلسون مانديلا هذه إلا وصوّر (بكاميرته) الشعرية قصيدة طويلة بعنوان مانديلا تتوسط ديوانه الشعري ولكن كان عوضاً في قصيدة مانديلا لشاعر الشئون والشجون الأفريقية في الأدب السوداني، شاعر أفريقيا محمد مفتاح الفيتوري:

يا أبئوس الخريف .. الجنوبي

كيف جلال .. الشهادة

إن لم تكن .. أنت

تولد في .. الموت

تكبر في السموت
تطلع حقل نجوم على حائط الموت
تصبح أوسمة من .. بروق
وعاصفة من .. غناء
وغاباً عظيماً من .. الرقص
أذهلتني في .. نضالك
تدمغ أعناق من .. دمفوك
وتسجن في العصر من .. سجنوك
وأنت سجين .. هنالك
أغرقني في .. اكتمالك
مانديلا
مانديلا

إنما يحصد .. القهر
من يزرع القهر في زمي
إنما يلبس الخوف
من ينسج الخوف في .. بدني
إنما الموت موت ابتلائي
أما أنا .. فسابقي
أراقص .. حريري
وأدافع بين هدير .. الملايين
عن وطني

مانديلا

مانديلا

- إن حريقتي هي ميراث أَرْضِي

ومعجزتي

وتوهُّجِي .. دربي

مانديلا

- إن حريقتي هي .. حريقتي

ففي خلود .. نضالي

وفي عبقرية .. شعبي

مانديلا

- إن حريقتي هي بدئي .. وخاتمتي

وكيف تكون .. سجيناً

وأنت هنالك ترسم .. وجهك

ففي شَهَقَات .. الصبايا

وأدخنة الغُرف .. المعتمات

وفوق رماد .. المناجم

كيف تكون سجيناً

وهم يلهثون .. وراءك

تحت جسور .. بريتوريا

وبناياتها .. الراعشات

وأنت تُكافئهم .. بالهزائم

مانديلا

أيها البطل .. الشيخ

مُغتسلاً بمياه .. الثمانين

مُختبئاً في تجليلك

أنهكني سفرى .. فيك

أعرف أنك ضوء على .. زمني

هكذا أنت

فامكث كما .. أنت

كن هكذا خالداً في .. معانيك

متكناً فوق مجد .. الثمانين

واببق .. مكانك

اببق .. مكانك

اببق .. مكانك

جزيل شكري للشاعر الأديب الدبلوماسي سيد أحمد الحارثي، الذي أجاب دعوتي للمشاركة الأدبية في هذا السفر المتواضع فأثحنني بقصيدة عن نيلسون مانديلا، من واقع الغابة و الصحراء بين غابات النخيل والمانجو في توفيق بديع بين رومانسية الشعر الحالم و انتباهة الفكر العالم على شواطئ الأنهار الأفريقية.

نيلسون مانديلا ١٠٠٠ أويى

- ١ -

كان نيلسون مانديلا هناك

قبل آلاف الأزمان

و آلاف الأحزان

كان هناك

يتكون فى رحم التاريخ

رغم جيوش الغزاة

وسفن القراصنة

ونظارات الجواسيس السوداء

كان يعلو كاشجار المانغو

ويسمو كغابات النخيل

فوق شواطئ الأنهار

كان مانديلا هناك

حين تسلك أوغاد أوربا (ليلاً)

إلى أفريقيا المستريحة بين الماء والماء

فبقروا بطنها ...

ومزقوها إرباً .. إرباً

- ٢ -

الشمس كانت غارقة فى بحر الظلمات

حين جاءت سفن أوربا

تدور حول أفريقيا من كل الجهات

دخلوها يستكشفون
ثم ركضوا يتقاسمونها
كما يتقاسمون لحم خنزير ذبيح
كان نيلسون مانديلا
ينمو في رحم التاريخ
و كانت سفنهم تأتي بالأسلحة
و تعود بثروات أفريقيا
و أطفال أفريقيا
كانت الثروة تبني أوروبا
و الأطفال يبنون أمريكا
و كانت أفريقيا تموت جوعا وقهرا
تحت سنانك خيل الغزاة
و كان مانديلا هناك

—٣—

كانت السماء فوق خط الاستواء
تبرق وترعد وترف دما استوائيا
و كانت سياط أوروبا تدمي ظهر أفريقيا
من الإسكندرية إلى الكيب تاون
و من منروfia إلى بورتسودان
و كانت قناة السويس أسيرة في وست منستر
تماما كجبل طارق وحلف بغداد وبحرية طبريه
و كان نيلسون مانديلا يزهر في رحم التاريخ
و الصحوة الأفريقية تتكون...وتتلون

و الرماح الأفريقية تعجم أعوادها
و ظلت سياط أوربا تدمي ظهر إفريقيا
و ظل مانديلا هناك

- ٤ -

و حبلت مصر
و أنجبت جمال عبد الناصر
ذلك الثائر الأممي
ذلك الإنسان الكوني
فأعطى إفريقيا شرعيتها الأدمية
و نهضت أفريقيا ونهض أبناؤها
(لومبا/نكروما/مؤدبو كيتا/
الأزهري/بن بلا/سكتوري/
معلمو نيريري/سنغور/جومو كنياتا)
و كان نيلسون مانديلا هناك
لكن وطنه كان وطنين
وطن أبيض ،
و وطن أسود
وطن للسادة
و وطن للعبيد
كانت سياط الامبراطورية العجوز
ما تزال تدمي ظهر إفريقيا الجنوبية
كان الأبيض الدخيل ملكا
وكان الأسود الأصل مملوكا

كانت السلطة ممنوعة عن السود
و الثروة ممنوعة عن السود
كان كل شيء ممنوعا عنهم
من الحب والغناء إلى الفرح والهواء
و كان مانديلا هناك

- ٥ -

لم يكن ممكنا ان يحدث كل هذا ...
ومانديلا هناك

فنهض مانديلا في كبرياء مليون رمح افريقي
و قاد ثورة الأصيل ضد الدخيل
و ثورة الفجر ضد الليل
و ثورة الحياة ضد الموت
فتداعوا عليه
و حاصروه

ثم رموه في جب عميق
(سبع وعشرين عاما في جب عميق)
لكن مانديلا ظل في كل مكان

قوي الايمان بافريقيا
شديد اليقين بالانسان
في كل مكان وزمان
لم يكن مجرد ثائر افريقي
كان كعبد الناصر - ثائرا اميا
وانسانا كونيا

فكان جديرا بالاحترام
و ظل جديرا بالاحترام
فانسحبت بريطانيا للخطوط الخلفيه
و تقهقر البيض للصفوف الخلفيه
و تقدم نيلسون مانديلا إلى الأمام
وتقدمت أفريقيا
وجلست جنوب أفريقيا في الصف الاول
وكان مانديلا دائما هناك
- ٦ -

... ظل نيلسون مانديلا
دائما هناك...
إنه الرجل القادم من أهوال أفريقيا
ومن أحراش غاباتها
ونفايات أنهارها
إنه الإنسان الخارج من بيوت الصفيح في الفيتو
ومن هوامش المدن
إنه الافريقي الذي صار اقدم سجين
و أعظم قائد
و هاهو الآن يترجل عن العرش
و يرحل عن السلطة في هدوء الأنبياء
بدون ضجيج
وبدون مسيرات مدفوعة الثمن
فنييلسون مانديلا صار درسا أفريقيا عظيما

لكل حاكم يريد أن يفك طلاسم شفرة الخلود

بدون فتوحات

بدون تحنيط

وبدون أهرامات

—٧—

نيلسون مانديلا ... أويي

آفركا ... أويي

(أويي بلغات أفريقيا الوسطى و الجنوبية تعني يعيش)

أثناء وبعد فترة رئاسته، كانت مواقف مانديلا وسياسة جنوب أفريقيا بصفة عامة كلها مشرقة ومشرقة إذا ما وضعت في ميزان حقوق الإنسان والديمقراطية والحريات العامة، وغيرها من معايير الجودة والنوعية التي تضبط أداء الحكومات والرؤساء. و لعل أبرزها موقف مانديلا المناهض لحرب العراق واستعداده للسفر للعراق والقيام بأي دور إذا ما طلبت منه الأمم المتحدة ذلك، ووصفه الجريء الواضح لأمريكا وبريطانيا بأنهما يتصرفان وكأنهما شرطة العالم وقوله أن جورج بوش ليس له بُعد نظر و ربما حول العالم الى هولوكوست جديد.... ذكر أن جنوب أفريقيا في وضع يؤهلها أن تلعب أي دور في حل النزاع الديني في العالم، خاصة النزاع القائم بين الإسلام من جهة والمحافظين الجدد، جورج بوش ومعاونيه، من جهة أخرى.

فطرة مسلمة، مذهب مسيحي، عقيدة أفريقية

النزعة الدينية وإلى حدٍ ما النكهة الإسلامية في حياة مانديلا واضحة للعيان سواء في سجايه الشخصية أو مزاياه السياسية، وهو وإن لم يعتنق الإسلام فإن تأثيره العام به يبدو جلياً سواء على مستوى سلوكه الشخصي أو القيادي كما يتضح عندما نتابع سيرته الذاتية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسيرة أمته نحو ذلك المجد الإنساني التليد.

نيلسون مانديلا كان دائماً يحرص على الاستيقاظ عند الفجر و يؤدي بعض التمارين الرياضية ولمدة نصف الساعة قبل شروق الشمس، مما يسبب الإزعاج والمضايقة لرفاقه الذين لم يتبنوا هذا النمط من الحياة، كما كان يبدأ معظم تحركاته خاصة في زمن النضال السري عند الفجر وهجعة الرقيب، ويقول كنت متعوداً أن استيقظ مبكراً و مغرماً باستقبال الفجر وتراجع الليل وانبلاج نور النهار وهو منظر لا حدود لروعته وجلاله (وَاللَّيْلُ إِذَا أَذْبَرَ. وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ) (المدر: ٣٣/٣٤) . كان مانديلا يعيش وكأنه مسلم، فقط تنقصه الأوراد وقرآن الفجر المشهود. حرّم مانديلا على نفسه الخمر في الوقت الذي يكثر فيه الكثيرون ممن حوله شربها وإدمانها وحتى عندما اضطره الإتيكيت البرتوكولي لرفع - الكأس على نخب توقيع آخر لمسات الاتفاق مع دو كلارك رئيس الجمهورية الأبيض - تظاهر بالشرب دون أن يتناول قطرة لأنه يحرمها على نفسه. كانت مكافحة الخمر شغله الشاغل بعد توليه الرئاسة حيث كانت الفقرة الثابتة في معظم خطبه و خططه الإصلاحية. في هذا الصدد يتفق نيلسون مانديلا الرئيس المسيحي

مع على عزت بيكوفتش، الرئيس المسلم للبوسنة والذي أورد في كتابه، الإسلام بين الشرق والغرب، (كان لتحريم الخمر في الإسلام، بالدرجة الأولى، صفة اجتماعية، فالخمر شر اجتماعي، على غير ما هو الأمر في الأديان الأخرى، بل إن بعض الجماعات الدينية تستخدم الخمر كعامل صناعي يساعد على استحضار النشوة، كما هو الشأن في إظلام الكاتدرائيات فكلها وسائل تؤدي إلى ذلك النوع من الخدر المطلوب. والإسلام عندما حرمها سلك مسلك العلم). وكان مانديلا يريد أن يتبنى حزب المؤتمر حملة توعية تشجع ختان الذكور، والذي يرتبط بالديانة الإسلامية أكثر منه بالمسيحية، و يقول مانديلا إن ختان الذكور لا يقتصر فقط على مزايا صحية بل تصحبه آثار نفسية هامة.

في منتدى عالمي عن الإسلام حضره العديد من القادة والمفكرين في أكسفورد عام ١٩٩٧ كان مانديلا من ضمن المشاركين فتحدث طويلاً وجميلاً عن الإسلام في وقت قل فيه المدافعون عنه من القادة و الزعماء الإسلاميين ناهيك عن غير المسلمين. ومن أهم ما أشار إليه مانديلا حينذاك أن الإسلام هو الديانة الأولى في أفريقيا، وهو عقيدة الأغلبية في أفريقيا.

تمتد النزعة الدينية والنكهة الإسلامية عند مانديلا و تتعدى السلوك الفردي والالتزامات الشخصية لتشمل كل التوجهات السياسية العامة بما في ذلك حرب التحرير، محور رسالته الأساسية في الحياة، وأساس حركته التي يخوضها مع بني جنسه ضد البيض العنصريين. كان مانديلا لا ينظر للبيض كأعداء يتحتم إبادتهم وإنما كعصاة يجب إصلاحهم، أو بالأحرى تطويعهم لتقبل الآخرين من السود والملونين كمواطنين معهم لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات، وأنهم سواسية. يقول مانديلا: و من سياسة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي توعية كل الناس بما

في ذلك الخصوم، و نحن نؤمن بأن لدى الناس القابلية للتحول نحو الأحسن. فكنا نبذل ما في وسعنا لكسب حراس السجن و تغيير مواقفهم. و بالفعل نجح وأصحابه في هذا المضمار حيث كان لهم حراس بيض يتابعون أخبار الحزب بشفقة. نجد مثلاً هذه اللمحة من مذكرات ماندبلا: (لقد كان بادنهورست بلا شك أسوأ وألعن مأمور للسجن عرفناه في جزيرة روبين، إلا أن جانباً آخرأ من شخصيته ظهر أمامي ذلك اليوم في شكل لمحة، وهو يودعني بعد أن تم نقله من السجن قائلاً: أتمنى لكم حظاً سعيداً. هذا الجانب من شخصيته كان مغموراً ولكنه موجود. فكرني ذلك بأن في كل إنسان حتى أكثر الناس وحشية وقسوة مثل بادنهورست قدراً من الإنسانية، وأنه بإمكان كل إنسان أن يتغير إذا ما لمست جوانب الخير في نفسه وقلبه. لم يكن بادنهورست شريراً بالكامل ولكن وحشيته فرضت عليه من قبل نظام غير إنساني، كان يتصرف بوحشية لأنه يلقي مكافأة نظير ذلك). هي لمحة تقابلها لمحات كثيرة مشابهة في الإسلام وخاصة في بداية الدعوة وما لاقاه المسلمون الأوائل من معاداة صناديد قريش وكبرائها، فمثلاً عندما اضطر ذلك الثفر القليل للهجرة وشرعوا في السفر إلى الحبشة قابلهم سيدنا عمر بن الخطاب وكان مشركاً حينها يناصبهم العداء، فرق قلبه لهم وقال لبعضهم تصحبكم السلامة، لفتت إحدى المؤمنات نظر زوجها لقول عمر فقال لها كأنك تطمعين في إسلامه فلما أجابت بالإيجاب قال لها: إنه لن يؤمن حتى يؤمن حمار ابن الخطاب. كان إحساس الزوجة أقوى إذ كان إسلام عمر ابن الخطاب بعدها بقليل، و ما أدراك ما إسلام عمر.

المرحوم محي الدين فارس، من شعراء أفريقيا و رواد الغابة والصحراء،
له نفس الشعور تجاه الرجل الأبيض. تبدو هذه الأبيات من إحدى قصائده وكأن
الذي كتبها هو نيلسون مانديلا:

لم أكره الأبيض.... لكنني
أكره منه الصفحة المعتمة
فلونه كلون قلبي... و كفه كفي
غنة ناغمة

يا لون أعماقي التي
مزقت عروقها المعاول الهادمة
أحببت كل الكون كل الورى
كل معاني القيم الملهمة
لكنني أبغض من حرم النور
على عيوننا المظلمة
و من أقام الليل في أرضنا
مُعصباً بكفه أنجمه

أفريقيا المضيئة المظلمة
أفريقيا يا آخر الملحمة
يا ثورة مجنونة في الدجى
تأهبت للجولة القادمة
لم أكره الأبيض لكنني
كرهت منه الصفحة المعتمة

مانديلا كان يركز دائماً على الفطرة، كشأن الأديان وعلى رأسها الإسلام. و مثل الإسلام كانت رسالته تستهدف الحلفاء والأعداء. والقاريء المسلم يمكنه أن يوفق بين العديد من النصوص الإسلامية التي تعنى بإصلاح الظالم والمظلوم وبين الأهداف المضمنة في أخبار وأفكار مانديلا بين الفينة و الأخرى..... من أقوال مانديلا: (إن الظلم يسلب كلاً من الظالم والمظلوم حريته، والذي يسلب إنساناً آخر حريته يصير هو الآخر أسيراً للكراهية والحقد و يعيش وراء قضبان التعصب وضيق الأفق.) و يستطرد في مقولة أخرى: (لقد عزز أناس مثل سوارت وجريجوري وبراند وغيرهم من ضباط السجن الذين وضعوني وراء القضبان وعلى مدى سبعة وعشرين عاماً إحساسي بالأساس الفطري للإنسان. لا يولد أحد وفي نفسه كراهية لأحد بسبب لونه أو أصله أو دينه، ولكن الكراهية تكتسب. وما دام لدى الإنسان المقدرة على تعلم الكره فهو قادر على تعلم الحب، لأن الحب أسهل وأسلم على قلوب البشر من الكراهية والبغضاء). - ظهر اسم السجن جريجوري في الأوساط الإعلامية إذ أن مذكراته التي كتبها عن فترة عمله بسجن جزيرة روبين كانت أساساً لفيلم بلغت تكلفته الثلاثين مليون دولار عن أعظم سجناء القرن العشرين على الإطلاق، نيلسون مانديلا. يقول مانديلا أيضاً: (كنت أرى لمحات السماحة والإنسانية لدى حراس السجن حتى في أحلك الأوقات وعندما يبلغ الأمر أشده بي وبرفاقي. وربما ظهرت تلك اللمحات الإنسانية للحظات قصيرة و لكنها كافية لطماننتي والرفع من معنوياتي. فالخير جذوة موجودة وموقدة في نفس كل إنسان، تختفي أحياناً ولكنها لا تتطفيء).

مثل هذه اللحظات تكررت كثيراً في الصراع بين الشمال والجنوب في السودان و بدت كومضات في ظلام الخلاف وإشراقات في قتامة الحرب وتداعياتها الكئيبة. كانت الفيوض البطولية والفتوحات الإنسانية فيها تتقسم وتتجسم في أفراد من الجنوب أحياناً وفي آخرين من الشمال أحياناً. بعض هذه اللحظات الجميلة الجليلة طالعنا في رواية الدكتور فرانسيس دينق الرائعة — طائر الشؤم — وهي رواية لا يمكن فصل الخيال فيها عن الواقع — يشعر إلياس بول، بطل الرواية، بكمية من الحقد والغبن والكراهية ضد العرب المسلمين الذين أغاروا على قريتهم ذات يوم وخطفوا أحد إخوانه أشويل و تسببوا في إعاقة أخيه مديت وإصابته بعاهة مستديمة في جسمه مما أثر في نفسيات الأسرة على مر الزمان. يلزم هذا الشعور إلياس حتى دخوله مدرسة التبشير المسيحية، و يدعم مدير المدرسة القسيس أركانجلو، الكاثوليكي الأوربي هذا الشعور و يعطيه أبعاداً أخرى بها مزيد من الحقد والكراهية للعرب المسلمين ولكن في ثوب حضاري يظهر القليل و يبطن الكثير. و يعتقل إلياس الدينكاوي ضمن مجموعة من طلاب المدرسة و يحال الى التحقيق بتهمة النشاط ضد النظام، وذلك في مقر قيادة الجيش الشمالي، وهو بالنسبة لهم جيش احتلال أجنبي. يمضى التحقيق و يعجب الضابط، على أحمد الجاك، بشجاعة البطل الصغير إلياس الدينكاوي و يتجاوز نقطة إبداء الشعور الطيب التي وقف عندها بادنهurst مأمور السجن مع مانديلا ورفاقه و يتجاوزها و يتعاضد شعوره من تعاطف و مواساة بعد أن سمع قصة الصبي وأسرتة المكومة إلى دعم معنوي ومادي و تبدأ وتستمر وتتواصل العلاقة بكل أبعادها الإنسانية بين الصبي الدينكاوي والضابط الشمالي رغم تحذيرات القسيس أركانجلو الذي حاول وأدعا و الذي تحول هو الآخر إلى مجرد دخيل وافد لإقحام ديانته المسيحية التي لم

تأخذ بعداً عميقاً في وجدان إلياس وعقيدته بل وقفت عند الحد الذي وقفت عنده مسيحية نيلسون مانديلا، أي اتخاذ المسيحية كمذهب بلا إيمان في القلب. تستمر القصة في حبكة فنية جميلة لا تبعد كثيراً عن الواقع و يواصل إلياس تعليمه حتى التخرج من الجامعة ومشوار الحياة اليومي في دنيا العمل، وعلاقته بالضابط على تقوى على مر السنين، به و بكل الأسرة من الجانبين، ونتابع بطل الرواية إلياس بول الدينكاوى وهو يبدى كثيراً من التراجع طوال هذه المسيرة و يغير من مفاهيمه حول العرب والمسلمين تماماً كتلك التراجعات التي تابعتها مع مانديلا ومالكوم إكس، حتى تقوده أقدار الراوي، الدكتور فرانسيس دينق، إلى الارتباط بالسيدة فضيلة ابنة أخ الضابط على الشمالي واعتناق الإسلام الذي ظل يقاومه في دواخله طوال هذه السنين. وربما كان هذا الزواج حلقة في منظومة ذلك العقد الفريد واللقاء القديم بين العروبة والزنوجة في السحنات الوراثة لسودانيي الشمال وبين الغابة والصحراء في السمات الثقافية والذي كان من نتاجه عبد الله الطيب نفسه وأمثاله. هذا اللقاء الذي تباطأ أخيراً بسبب تفريط الشماليين في الجانب الإسلامي وإفراطهم في الجانب العروبي.

هذه اللحظات تبدو عبر الملامح المعقدة للهوية السودانية والتي حاول

الشاعر الأديب صلاح أحمد إبراهيم رسمها في قصيدة ملوال:

وقبل أن تنكرني اسمع قصة الجنوب و الشمال

حكاية العداء و الإخاء من قِدم

العربي حاملُ السوطِ المشلِّ للجمال

حلَّ على بادية السودان كالخريف بالسنة و الكتاب

يحمل في رحاله طموحه و لوحه و تمرتين في جراب

و شجرة الأنساب

تفتحت حقيقة سمراء في أحشاء كل أم

ولد منهن من بنات جدك الأكبر

لما بذرت نطف الأعراب

فكان منها الفور و الفونج و كل سحنة فاحمة

و شفة غليظة و شعر مفلقل ذر على إهاب

حقيقة عارية كالفيل كالتمساح

كالمنيف فوق كسلا سليطة الجواب

كذاب الذي يقول في السودان إنني الصريح

إنني النقي العرق إنني المحض

أجل كذاب

هذا الميل والتعاطف مع ترجيح كفة الهوية الأفريقية على العربية يتجلى أيضاً في أشعار محمد المهدي المجذوب، ورغم أنه توفي قبل ثلاثين عاماً إلا أن هذه الأبيات والتي كتبها عام ١٩٥٣ في قصيدة أسماها، فجر كذوب، تبدو وكأنه يستقريء حينها ما يدور في ساحة السياسة السودانية الآن وما طرأ عليها من تدهور فكري، وعدم معالجة حكيمة لمسألة العرقيات مما أفضى إلى نزاع وصراع واحتراب:

سقى المطامع ألواناً فأنبتها	شوكاً تألق فيه الدمع و الذهبُ
و الناس كالناس عهد الغاب أطلقهم	مخربين فمنهوب و منتهبُ
في كل ناحية رأي يخالفه	رأي و رأي به الأوطان تنشعبُ
طوائف و ختبرات يدين بها	من دينه العجز و الأشباح و النصبُ
و في العمائم أسراراً مخنطة	كالموميات بدين الله تنقبُ

عندي من الزنج أعراقٌ معاندةٌ وإن تشدق في إنشادي العربُ
فكيف يمنع قلبي عن موطنه وكيف مثلي في السودان يغتربُ

أرجو ألا تطال هذه الغربية التي تحدث عنها الشاعر المجذوب هنا إخوتنا مسلمي الجنوب الذين عانوا مثل غيرهم من ويلات الحرب ولم يجدوا الاهتمام اللازم في بنود اتفاقية السلام ليواجهوا معاناة أخرى من إخوتهم غير المسلمين في الجنوب.

ليس ثمة مقارنة بين دخول البيض الأوربيين بقيادة يان فان رابيك إلى جنوب أفريقيا وتلك القرون المتتابة من التفرقة العنصرية والتي امتدت رسمياً حتى لحظة خروج مانديلا من السجن والتي ستمتد شعبياً إلى ما شاء الله، لا مقارنة بين ذلك ودخول العرب المسلمين إلى شمال أفريقيا والسودان على أنفاس النبوة بقيادة عبد الله بن أبي السرح وما تبع ذلك من قرون طابعها الاندماج والنشوء والارتقاء، ولكنه اندماج توقف عند تخوم الجنوب السوداني، ولكن الأمل في الاستئناف كبير طالما بقيت النزعة الأفريقية في عبد الله الطيب وأمثاله وطالما بقيت النكهة الإسلامية عند نيلسون مانديلا وأمثاله.

الشعور بالواجب نحو إصلاح الآخرين بما في ذلك الأعداء شعور إنساني نبيل في غاية السمو لا يتأتى إلا من مصادر عالية علياء، وأخلاق القبيلة وحدها لا تكفي لذلك وفي ظل ضعف الالتزام الديني عند المسيحيين بحثت عن مصادر لإلهامات إسلامية في توجهات مانديلا، وعندما كنت في زيارة لجنوب أفريقيا عام ٢٠٠٠م ذكرت ذلك لبعض مرافقي من المواطنين المسلمين هناك فحدثوني عن تأثير مانديلا ببعض الرفاق و زملاء النضال من مسلمي جنوب أفريقيا ذوي

الأصول الآسيوية وعلى رأسهم رفيقه في الحزب والنضال وزميله في السجن على مدى ربع قرن من الزمان المناضل أحمد كاثرادا والذي سعدت بمقابلته في مدينة كيب تاون والتحدث معه عن سنوات العمر الطويلة التي قضاها مع مانديلا في السجن. كما كان مانديلا يسكن معه في شقته بعد إغلاق مكتبه للمحاماة مما اضطر أحمد كاثرادا للسكن في المطبخ و إيثار مانديلا بالجزء الأكبر من الشقة حتى يتثنى له مواصلة خدمة زبائنه من المظالم السود. كما ظل مانديلا مختبئاً و لفترة طويلة عند جماعة من المسلمين بمدينة كيب تاون أثناء فترة نضاله السري. و توجد صورة، من ضمن الصور المنشورة في كتاب مانديلا (Long Walk to Freedom) مشواري الطويل من أجل الحرية يرى فيها مانديلا و هو في ريعان الشباب و من خلفه لوحة كتب عليها باللغة العربية الآية: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (البقرة: ٢٦٩) . ولقد أورد مانديلا في مذكراته العديد من الوقفات والمواقف مع العديد من المسلمين في جنوب أفريقيا أمثال صديقه قاسم باتل وزوجته زبيدة باتل سكرتيرة الحزب وعبد الله عبد الرحمن و يوسف دادو وموسى كوتاني وغيرهم....

نيلسون مانديلا بلا شك من أعظم القادة في التاريخ الحديث ومحكمة ريفونيا، التي حاكمت مانديلا في الستينيات في أشهر قضية بعنوان الدولة ضد نيلسون مانديلا وآخرين هي أعظم وأهم من محكمة نورنبيرج في الأربعينيات لمحاكمة النازيين بعد الحرب العالمية الثانية، مع الفارق الكبير. فقد كانت هذه المحكمة محط متابعة واهتمام محلي ودولي لدرجة أن كل الدول الأعضاء في مجلس الأمن صوتت لصالح مانديلا ورفاقه باستثناء بريطانيا وأمريكا اللتان ما تزالان تصران على هذا الشذوذ الأخلاقي في المواقف الرسمية تجاه العديد من

قضايا القانون الدولي. بالرغم من أن محاكمة ريفونيا كانت تجسد قمة عنصرية البيض وظلمهم للأفارقة أصحاب الوطن الأصليين وتجريدهم من أبسط حقوق الإنسان ناهيك عن حقوق المواطنة، إلا أنه وأثناء هذه المحاكمة قد بدت بعض اللمحات الإنسانية من جانب البيض ومن جانب السود أيضاً، من بينها اكتفاء القضاة البيض بالحكم بالسجن المؤبد بدلاً عن الإعدام كما كانت تقضى قوانين ذلك النظام العنصري، فما كادت كلمات الحكم بالسجن المؤبد تنطق حتى علت صيحات الفرح وضجت القاعة بالصراخ والهتاف لأنه نجاة من الموت. ذكر ماندبلا هؤلاء القضاة في مذكراته وقال إنني أثنى عليهم كأفراد و ليس كممثلين للدولة أو لأبناء جنسهم ولكن كنماذج للكرامة الإنسانية تحت ظروف محنة قاسية. كما تجلت تلك اللمحات الإنسانية في أن بعض زوجات هؤلاء القضاة البيض كن يقمن بإعداد الطعام و تقديمه لهؤلاء المتهمين. من هذه اللمحات الإنسانية أيضاً أثناء تلك المحاكم اللاإنسانية الخطبة الأدبية المؤثرة التي ألقاها ألان باتون رئيس حزب التحرير والرجل الأبيض المتضامن مع السود في المحكمة والذي كان صمن ذلك الحضور الحاشد في القاعة من البيض والسود بما فيهم عائلات المتهمين ومن بينهم ويني زوجة ماندبلا ووالدته. ألان باتون كان الأكثر تأثيراً إبان تلك الحقبة ضمن مجموعة من الأدباء والشعراء البيض الذين شاركوا المواطنين الأصليين من السود مشاعرهم وتعاطفوا معهم وتعاطوا قضيتهم في إطار آدمي وحس إنساني. كان أبرزهم يوجين ماريز، ولويس لابيولتا، وشيلا كاسونز، وأنجريد يونكر، و بربيت برنتياخ، وهذا الأخير كان متميزاً و يعرف شعره بحدة الانفعال و الخصومة المطلقة ضد العنصرية. كانت معظم كتاباتهم بلغة الأفريكانا،

اللغة الرسمية للبلاد منذ العام ١٩٢٥، و يستخدمها المستوطنون البيض و كثير من الملونين، و هي لغة مشتقة من اللغة الهولندية.

إذا ما نظرنا إلى مواقف الدول و قارناها بمواقف الأفراد البيض فإننا نرى وبالرغم من المواقف الرسمية المخزية لأمريكا وبريطانيا تجاه قضية التفرقة العنصرية فإن حركة مانديلا ورفاقه قد وجدت دعماً قوياً مادياً ومعنوياً من الدول الإسكندنافية ابتداءً من دفع تكاليف المرافعات أثناء المحاكمات، إلى المساعدات الإنسانية للسجناء السياسيين والمنح الدراسية لأبناء وأعضاء المؤتمر الأفريقي، وقد نال ثلاثة من قادة هذه المسيرة المقدرة إنسانياً جائزة نوبل هم — البرت لوتولي عام ١٩٦٠ والأسقف توتو عام ١٩٨٤ — و نيلسون مانديلا عام ١٩٩٣. أما الجانب الإنساني لدى السود فقد سجلته المواقف الشجاعة للأفارقة بقيادة المتهم الرئيسي مانديلا والذين كانت تحقق بهم المخاطر وتدور أعينهم من الخوف في ذلك الخضم الظالم و يغشاهم الموت من كل جانب، و صورة زميلهم السجن السياسي فويزلي ميني الذي نفذ فيه القدر ونفذ فيه حكم الإعدام شناقاً ما تزال ماثلة أمامهم. ومن خواطر مانديلا في تلك اللحظات قوله: (لم يكن همنا النجاة من العقوبة أو تخفيفها بل كان همنا تعزيز القضية التي نناضل من أجلها مهما كان الثمن الذي سندفعه كأفراد. لن ندافع عن أنفسنا بالمعنى القانوني بل بالمعنى الأخلاقي واستعملنا المحكمة كوسيلة من وسائل النضال ورفضنا تقديم أي معلومات تضر بالآخرين). و يستطرد مانديلا بدقة في ذكرياته عن تلك اللحظات الحرجة قائلاً: (وضعت أوراقى على المنضدة ورفعت بصري إلى القاضي فخيم على المحكمة هدوء كامل، لم تغادر عيناى وجه القاضي دي فليت وأنا ارتجل هذه الكلمات: (لقد جردت نفسي طيلة حياتي للنضال من أجل الشعب الأفريقي. لقد

كافحت ضد هيمنة البيض كما كافحت ضد هيمنة السود. لقد عشت تواقاً إلى مجتمع ديمقراطي حر، يعيش فيه الجميع في وئام و مساواة. إنه هدف أرجو أن أعيش و أحققه، وهو الهدف الذي سأموت من أجله إن لم يكن من الموت بد). الهدف الذي حققه وأعظم إنجازاته كما يقول تلك الديمقراطية لشعب متعدد الأعراق — Multi Working Democracy — و في الانتخابات قال مانديلا: لم يفز المؤتمر الأفريقي بأكثر من ثلثي الأعضاء حتى لا يغير الدستور بأغلبية مطلقة تظلم الآخرين من غير الأفارقة وهذا ما كنت أرجوه. دستور يستند على قاعدة سياسية عريضة، وجو سياسي معافى، إذا ما توفر لدينا لما زهد عبد الله الطيب وأمثاله في السياسة والعمل العام، و ما أبعد السياسة هنا من هذه الروح الطبية لمانديلا. ما إن يتوصل أي حزب لسدة الحكم بانتخاب أو انقلاب إلا وكان همه الأكبر وبرنامجهم السياسي الأساسي هو إقصاء الآخرين ليس من المناصب الدستورية فحسب بل حتى من الوظائف العادية.

عندما يتذكر مانديلا ساعات المحكمة وتلك اللحظات الجليلة في تاريخه بل تأريخ الإنسان عامة يقول: كنت على استعداد لتقبل عقوبة الإعدام ليس لأني شجاع و لكن لأني واقعي. و بما أنه لم يكن لديه من النصوص الدينية ما يصاحب الإنسان ويطمئنه في تلك اللحظات فقد كانت أقرب الكلمات إلى وجدانه حينها هي ما كان يحفظه من قول شكسبير (تقبل الموت برضاً كامل ليصبح الموت عذبا كعذوبة الحياة)، قارنت هذا وما ذكره لي أحد زملاء المهنة عندما كان يعمل ممرضاً بمصلحة السجون أنه وعندما يكون في مرافقة أحد المحكوم عليهم بالإعدام إلى ساحة التنفيذ فإنه يلقنه دعاء الاستغفار والشهادة (اللهم أنت ربى ماضٍ فيّ حكمتك عدلٌ فيّ قضاؤك أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا

يغفر الذنوب إلا أنت لا إله إلا الله) إذا تم إعدام مانديلا حينها لأخذت
مسيرة التحرير في جنوب أفريقيا إتجاهاً آخرأ و ربما ازداد تأثيره قوة بعد قتله
وبقى في الوجدان الأفريقي حياً كما بقي باتريس لوممبا:

هل رأيتم آخر الليل و قد ران على الناس الوسن

جثة طاهرة تدفن من غير كفن

تركت في خضرة الأرض شريطاً دمويأ

هامساً في أذن الغابة و الصبح قياً

مات لكن صار أقوى منه حياً

كان نيلسون مانديلا يحرص على مقابلة القساوسة ورجال الدين من كل
الطوائف بما في ذلك الواعظ الإسلامي الذي يأتي خصيصاً لزيارة أحمد كاثرادا
المسلم الوحيد بين تلك المجموعة من حزب المؤتمر في سجن جزيرة روبين . في
أول أغسطس ٢٠٠٤ اتصل بي أحد الأخوان من جنوب أفريقيا و نقل لي خبر وفاة
هذا الواعظ الإسلامي وأنه شاهد أحمد كاثرادا في جنازته كما سمع نعي مانديلا
إنهذا الواعظ المسلم من خلال أجهزة الإعلام. أبدى مانديلا إعجاباً كبيراً بالقس
شيفر الذي كان يقدم محاضراته لهم في السجن لأنه في رأيه كان متحرراً ويوفق
بين العلم الحديث والإنجيل وهنا يشترك مانديلا مع الكثيرين من عشاق العلاقة بين
الفطرة والإيمان كما جاء مثلاً في كتاب الإنسان ذلك المجهول للدكتور أليكس
كاريل وكتاب بين العلم والقرآن والإنجيل للدكتور مورس بوكاي . وربما لولا
وهن الشيخوخة وتزايد المشاغل العامة التي تستهلك الفكر والوقت لانتهى مانديلا
حتى في الخط السياسي إلى اعتناق الإسلام كروجيه غارودي مثلاً . لاسيما وأن
مانديلا هو القائل : (إذا لم يكن الإنسان تحريرياً في شبابه محافظاً في شيخوخته

فإن في شخصيته خلل) وهذا يذكرني بقول أحد الأساتذة الإنجليز لتلامذته في مدرسة خور طقت : (إذا بلغت الخامسة والعشرين ولم تكن اشتراكياً فإن في مخك خلل وإذا تجاوزت الأربعين ولم تتخل عن الاشتراكية فإن في عقلك خلل). مانديلا قال إن الشيوعيين هم الجماعة السياسية الوحيدة من البيض التي ظلت ولعشرات السنين تعامل الأفارقة كبشر متساوين معهم و ذكر أنهم رضوا أن يأكلوا معهم ويتحدثوا إليهم و أن يعيشوا و يعملوا بينهم، وهو يعتقد أنه ونتيجة لهذه الأسباب فإن كثيراً من الأفارقة لا يفرقون بين الشيوعية والحرية، والحزب الشيوعي هو أول بوتقة تجمع البيض و الملونين والسود في تلك الأحوال العسية في تلك البلاد القصية. أول صديق من البيض لمانديلا هو نات برجمان زميله المتدرب في نفس مكتب المحاماة الذي التحق به مانديلا في بداية حياته العملية، والسبب في معاشرته للسود هو أنه شيوعي، وما زالت هذه الظاهرة يلمسها العديد من أبناء الأفارقة في أوربا وأمريكا في تعامل اليساريين التضامني من أبناء تلك الدول معهم. كان مانديلا لا يخفى إعجابه بالكاتب هارمل الحاصل على ماجستير من جامعة رودس والذي كان بإمكانه أن يعيش حياة مترفّة مع الطبقات العالية من المجتمع ولكن التزامه الشيوعي طبعه بالزهد والحياة مع الأفارقة. كما يذكر مانديلا في هذا الصدد زميله إسماعيل الهندي فقد كان هو الآخر شيوعياً ومناضلاً تولى قيادة المؤتمر الهندي في جنوب أفريقيا، ولعلها من المصادفات الجميلة تكرار هذا الاسم الصادق الوعد، اسم إسماعيل، في العديد من البلدان وارتباطه بحركات التحرر فيها فإلى جانب إسماعيل قائد المؤتمر الهندي في جنوب أفريقيا فهناك إسماعيل القائد الوطني والذي أطلق اسمه على العديد من الشوارع في ماليزيا هذا بالإضافة للزعيم إسماعيل الأزهري في السودان.

انتصار كاسترو وجيفارا في الطرف الآخر من الدنيا ألهم حركة مانديلا ورفاقه وزاد من نشاطهم وأطلق مانديلا العنان للحبته و ارتدى الملابس الكاكية البسيطة تيمناً بكاسترو. وداخل السجن كان مانديلا كثيراً ما يقدم محاضرات عن الاقتصاد الاشتراكي وقال كنت منحازاً للاشتراكية التي اعتبرها حينذاك أرقى ما توصل إليه البشر في تنظيم الحياة الاقتصادية. ويذكر مانديلا أن المزاج الاشتراكي لدى جمال عبد الناصر كان هو القاسم المشترك بين العروبة والأفريقية وبين الكثير من حركات التحرر الأفريقية، ولو أن باتريس لوممبا كتب مذكراته لكان رأيه مثل مانديلا في هذا الشأن، لا سيما وأن جمال عبد الناصر هو الذي كفل أبناء لوممبا بعد اغتياله.

بروفيسور عبد الله الطيب لم يكن في حاجة للاشتراكية كمذهب لأنه زاهد في السياسة أساساً، وإن احتاج لبعض عناصر الاشتراكية النبيلة ففي الإسلام ما يغني أمثاله من العلماء ومنذ وقت مبكر. و يظهر هذا في حديثه عن الشاعر صلاح أحد إبراهيم المعروف بنزعتة الاشتراكية حيث يقول (ذهب صلاح إلى غانا مجذوباً ومتأثراً باشتراكية زعيمها كوامي نكروما ودعوته الشاملة يرجو بها نهضة أفريقيا السوداء. وأحسب أن صلاحاً وجد في غانا شيئاً ترك فيه أثراً عميقاً للغاية، زرع عنده اليسارية العربية التي كانت أمراً مثاليّاً رائجاً في سنوات الخمسين والستين. الذي وجدته في غانا هو إسلام غرب أفريقية — إسلام يختلط بال شخصية فتنصر فيه وينصهر فيها. لا أشك أن صلاحاً رحمه الله تأثر بروح هذا الإسلام وقوته غير المتكلفة التي أحسها في غرب أفريقية. الإسلام عندنا في السودان قوى وبسيط وإنساني المساواة. ولكن جاءنا إسلام حضاري معقد من طريق محمد على باشا ومن طريق مذاهب مختلفة الأهواء في بلاد الشرق العربي وغير العربي التي

قال عنها رسولنا صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، ووصفها عمر ابن الخطاب لحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم بأنها فتنة تموج كموج البحر).

كما أن عبد الله الطيب لم يكن في حاجة لأن يرتمي في أحضان الإمبريالية الرأسمالية كما ارتمي فيها الكثيرون ممن يرفعون شعارات الإسلام سياسياً ويرعون حول الحمى. ومن ذكريات رحلة قام بها بروفيسور عبد الله الطيب إلى الولايات المتحدة الأمريكية يذكر ما يلي: قال لي الأستاذ محمد المدني الأمريكي الأفريقي في مدينة لوس أنجلوس ١٩٨٢م في ديسمبر وكان ذلك في احتفالات المولد النبوي 1412 هـ : (أنا التمس إثبات نفسي و وجودها بالإسلام. لا التمس أي كسب سياسي أو اقتصادي. أريد أن أكون بشراً هو أنا، أحترم نفسي من حيث كينونة البشرية. يمكنني أن أكون بلا إسلام مليونيراً أسوداً أو أي شيء طبقي كبير ولكن مع ذلك أكون أنا مسلوب البشرية. بالإسلام تكون بشرتي موجب. هذا الإيجاب لبشرية الشخص محسوس ملموس في إسلام غرب أفريقية. ولما ثار بعض المستعبدين السود في أمريكا الجنوبية في منتصف القرن الماضي ثورة مفاجئة، وكانوا من أطوع العبيد وأصبرهم على العمل، استغرب سادتهم. ثم اكتشفوا كتابات يديرونها بينهم على ألواح واستشاروا فيها الكنيسة فأخبرهم الفاتيكان أنها كتابات تعاليم صلوات إسلامية وإن الصواب من التصرف هو التخلص منهم حالاً وبسرعة بإرسالهم في سفن إلى شاطئ غرب أفريقية. وكان السلطان محمد بيلو وأصحابه يطمعون أن يصل الإسلام إلى شاطئ بلادهم الغربي ولكن كانوا يعلمون أن هناك سفن النصارى بنيرانها وسطوتها — فقد أرسل الآن النصارى رقيقهم المسلمين إلى نفس الشاطئ ليتخلصوا منهم ومن دينهم).

الأنظمة الشمولية عندنا غالباً ما تأخذ من النظام الاشتراكي أسوأ ما فيه من سياسات قمعية ومصادرة للحريات، وفي الجانب الآخر تأخذ من النظام الرأسمالي أسوأ ما فيه أيضاً كجعل المال دولة بين فئة معينة، و إئصال كاهل المواطن البسيط بضرائب وجمارك كبيرة، ووضع قيمة عالية للخدمات الأساسية من تعليم وصحة وغيره. على كل حال فإن عبد الله الطيب لم يكن سياسياً في الأساس وحتى نشاطه داخل مؤتمر الخريجين لم يتعد دور العضو العادي ولم يطلع بأي دور قيادي.

تحدث نيلسون مانديلا كثيراً عن الدعم والتضامن الذي وجدته حركة التحرير من العالم الإسلامي ومن المشاركة الفعالة للمسلمين بجنوب أفريقيا، وهو يعتبر أن الإسلام هو الديانة الرئيسية لقارة أفريقيا بأسرها لأن عدد المسلمين يفوق عدد المنتسبين لأي ديانة أخرى بما في ذلك المسيحية. وفي محاضرة ألقاها مانديلا في المركز الإسلامي بأكسفورد في يوليو ١٩٩٧ قدم عرضاً مختصراً لتاريخ انتشار الإسلام في أفريقيا ومساهمة الإسلام في تحرير الكثير من شعوب القارة وأثره في نهضة وتنمية تلك الشعوب وذكر وهو لا ينسى مهنته كمحامى يهتم بالمواثيق والعقود أن المسلمين يتمتعون بجميع حقوقهم في ظل النظام الجديد في جنوب أفريقيا وأشار إلى اعتماد عقد الزواج بالطريقة الإسلامية كإحدى الطرق الموثقة والمُعترف بها في الدوائر الرسمية وفي ذات المحاضرة أشاد برفاق نضاله من المسلمين وقال أن ثلاثة من وزراء حكومته مسلمون.

خاتمة ختمية

هذه اللمحات في سيرة البروفيسور عبد الله الطيب والتي تابعتها فيها منذ ميلاده عام ١٩٢٠ في التميراب ريفي الدامر، مروراً بالخلوة والمدارس المختلفة في كسلا والدامر وبربر ثم كلية غوردون التذكارية حتى نال باكيلوريوس الآداب (مرتبة الشرف) جامعة لندن عام ١٩٤٨ وأُعقبها بالدكتوراه من جامعة لندن ١٩٥٠ وتتنقل في الوظائف والمقاعد الأكاديمية حتى وصل إلى رئاسة مجلس جامعة الخرطوم، ومجمع اللغة العربية في السودان.

وكيف كان يحتل تلك المكانة المرموقة في الأوساط الثقافية والأكاديمية في السودان وغيره من البلاد، وكيف شملت اهتماماته مختلف مجالات الفكر والأدب واللغة العربية، فهو معلم وفقيه ومفسر وباحث وشاعر وكاتب وروائي، وناقد ومحاضر متميز؛ إضافة إلى أنه دارس متعمق للأدب العالمي؛ خصوصاً الإنجليزي.

يمتد تاريخ الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب الأكاديمي إلى أكثر من نصف قرن حيث عمل محاضراً في معهد دراسات الشرق الأوسط وإفريقيا في جامعة لندن سنة ١٩٥٠م، ثم رئيساً لقسم اللغة العربية ومناهج المدارس المتوسطة في معهد بخت الرضا لتدريب المعلمين في السودان ثلاث سنوات، ثم أصبح أستاذاً في قسم اللغة العربية في جامعة الخرطوم سنة ١٩٥٦م، وعميدا لكلية الآداب فيها

سنة ١٩٦١م. وأشرف عام ١٩٦٤م، على إنشاء كلية عبد الله باريو في جامعة أحمدو بيلو في كانو بنيجيريا، وكان أول عميد لها، واختير مديراً لجامعة الخرطوم سنة ١٩٧٤م، وفي العام التالي مديراً لجامعة جوبا التي أنشئت في ذلك الوقت لتوفير التعليم العالي في جنوب السودان، كما عمل خلال الفترة ١٩٧٧-١٩٨٦م أستاذاً للدراسات العليا في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة سيدي محمد بن عبد الله في مدينة فاس بالمغرب، وكان عضواً في هيئة تحرير الموسوعة الإفريقية في غانا، وهو عضو في مجمع اللغة العربية في القاهرة، ورئيس اتحاد الأدباء السودانيين، كما كان أستاذاً زائراً لعدد من الجامعات العربية والإفريقية والبريطانية. نال العديد من الجوائز وحظي بالتقدير العلمي في العديد من المؤسسات والجامعات. ١٩٧٧ أستاذ ممتاز مدى الحياة في جامعة الخرطوم. ١٩٨١ دكتوراه فخرية في الآداب من جامعة الخرطوم. ١٩٨٧ دكتوراه فخرية في الآداب من جامعة كانو في نيجيريا له ولنيلسون مانديلا في نفس الاحتفال. ١٩٨٩ دكتوراه فخرية في الآداب من جامعة الجزيرة في السودان. حصل على جائزة الملك فيصل العالمية وذلك لما له من إسهامات أدبية ثرة وجهود علمية متميزة في مجال الأدب العربي خاصة تلك الدراسات التي تناولت النقد الأدبي القديم عند العرب في تاريخه أو كتبه أو رجاله أو قضاياها. وفي حقول الفكر والأدب عموماً، فهو محيط بالشعر العربي وتاريخه وقضاياها إحاطة قل أن تتوافر لكثير من الدارسين، وقد تميّزت مؤلفاته بطابع أصيل يربطها بأمهات الكتب في الأدب العربي ونقده، منها كتابه المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعاتها المكوّن من أربعة مجلدات، وهو سفر قيم يحلّل فيه مختلف جوانب الشعر العربي وخصائصه منذ العصر الجاهلي، وقد استغرق تأليف أجزائه خمسة وثلاثين عاماً،

وصدر الجزء الرابع منه سنة ١٩٩٠م؛ متضمناً إشارات عديدة لدور النقد العرب في العصور المختلفة، وتطور القصيدة العربية، وتأثيرها على عدد من الشعراء الغربيين. وصدر للأستاذ الدكتور عبد الطيب العديد من المؤلفات والكتب والبحوث باللغتين العربية والإنجليزية تناول فيها قضايا الشعر والنثر والنصوص، ومن كتاباته باللغة الإنجليزية فصل حول الشعر الجاهلي نُشر ضمن إصدارات جامعة كمبردج حول تاريخ الأدب العربي، وموضوع للموسوعة البريطانية عن أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والمنفلوطي والعقاد؛ إضافة إلى كتابين آخرين هما أبطال الجزيرة العربية وقصص من رمال الجزيرة العربية.

وللأستاذ الدكتور عبد الله الطيب دواوين شعرية عدة ومسرحيات وقصص من التراث الشعبي والأحاجي وقصص الأطفال باللغة العربية، وله علاوة على ذلك نشاط واسع في الأوساط الإعلامية امتد على مدى خمسين عاماً، ومن ذلك برنامجه الإذاعي حول تفسير القرآن وهو باللغة الدارجة في السودان، وقد استمر تقديمه زهاء الأربعين عاماً، ويقدم حالياً برنامجاً حول الأدب العربي في الإذاعة والتلفزيون السوداني.

تتميز مسيرة شعب جنوب أفريقيا النضالية بأنها من أهم وأغنى التجارب التحررية في القرن العشرين ويشكل انتصاره نقطة فاصلة في تاريخ شعوب القارة الأفريقية كلها. تلك المسيرة التي تجلت في دراما سيرة و مذكرات رمزها الوطني نيلسون مانديلا والتي ترجمت إلى ثلاث وعشرين لغة في شهور قليلة. جنوب أفريقيا بلد يتمتع بثروات طبيعية هائلة و ثقل سكاني كبير (٤٣ مليون نسمة) وأهمية جيوسياسية فريدة. أهم إنسان في جنوب أفريقيا هو مانديلا، تابعناه خلال هذه الخواطر طفلاً صغيراً يرتع في قرية في أعماق الريف، ثم شاباً يافعاً يطلب

العلم في الجامعة، ثم موظفا صغيراً يكافح ليعيش أسرته، و واكبنا مسيرة نضال مانديلا الفذة وقد تفتحت مداركه للعمل السياسي، فينخرط بكل إمكانياته في حركة النضال الشعبية المناهضة لنظام التمييز العنصري المتسلط، فنراه عضواً فعالاً في حزب المؤتمر الوطني الأفريقي ثم ركناً من أركانه، ثم مؤسساً وقائداً لجهازه العسكري. وعشنا معه وهو يقارع الظلم جهاراً من داخل صفوف الحزب ومن خلال مهنته كمحامى، ثم من خلال العمل السري خفية بلا خيفة وهو يريد تلاحقه قوات القهر والاستبداد. وعشنا معه سجيناً في جزيرة روبين سبعة وعشرين عاماً، ثم مفاوضاً صلباً من أجل مستقبل أمته، فرئيساً لأول حكومة شرعية ديمقراطية تحل محل حكم البيض العنصري الذي دام ثلاث قرون. وتأملنا مزاياه الشخصية التي جعلت منه رمزاً لنضال سكان جنوب أفريقيا على اختلاف أعراقهم، وجعلته محل إجماعهم فوجدنا أهمها صدق إيمانه وصلابته في التمسك بحقوق الأمة طوال مسيرته النضالية بلا هوادة أو مساومة و فوق كل ذلك التسامح مع أعداء أمس البيض اللذين أذعنوا كغيرهم من المواطنين للعيش في ظل دولة المساواة و الديمقراطية.

في اختتام رواية ابك يا بلدي الحبيب، جنوب أفريقيا، يقول الراوي ألان باتون: (إنه الفجر الذي بزغ، يستيقظ طائر التيتهويا من النوم و يمضى إلى عمله فى النواح الحزين. ما يزال وادي أميزمكولو العظيم غارقاً في الظلام. لكن النور فى طريقه إليه. وما تزال قرية ندوتشي غارقة في الظلام، ولكن النور فى طريقه إليها أيضاً. فالفجر أطلّ مثلما كان يأتي منذ آلاف القرون. ولكن حين يأتي ذلك الفجر، فجر اعتاقنا من خوف العبودية وعبودية الخوف فذلك هو السر). وهذه ليست رومانسيات أديب بقدر ما أنها استقراءات مفكر لبيب قبل نصف قرن من

الزمان لما آل إليه الحال خلال مسيرة شعب جنوب أفريقيا الذي ظل صامداً منتظراً حتى إذا أصبح أطل فأشعل التاريخ ناراً و اشتعل.

كلنا أمل في أن يطال ما حدث في جنوب أفريقيا دولاً أخرى منتشرة أو منتظمة في هيئة الأمم المتحدة التي نأمل أن تصفى قراراتها من هذا الشر المنطوي والكيد الخفي، وهذه الخواطر تتابع ما انتهى إليه مانديلا من خير عبر مسيرته الطويلة وما ابتدأ منه عبد الله الطيب من خير منطوي في تلك النصوص من رسالة الإسلام النبيلة و يصدقنا حديث وحدث الشاعر محمد المهدي المجذوب وهو يصور ذلك النبل الإنساني في معانٍ تتوء بحملها الكلمات وتوبة محورها الذات وصلوات مصدرها نفس كنفس عبد الله الطيب التي صنعها الإسلام من الداخل لتنتشر الخير وتنشد السلام الذي يضبطه الحق بين الناس وترعاه موثيق الخير بين الأمم لتعم فيوضه و تتجمع أطرافه حباً وسلاماً في نفس كنفس نيلسون مانديلا الذي صاغته الظروف من الخارج.

صلى يا ربى على المدثر

و تجاوز عن ذنوبي و اغفر

و أعف يا إلهي

بمتاب أكبر

فرماني ولع بالمنكر

أبكون الخير في الشر انطوى

و القوى خرجت من ذرة

هي حبلى بالعدم

أتراها تقتل الحرب

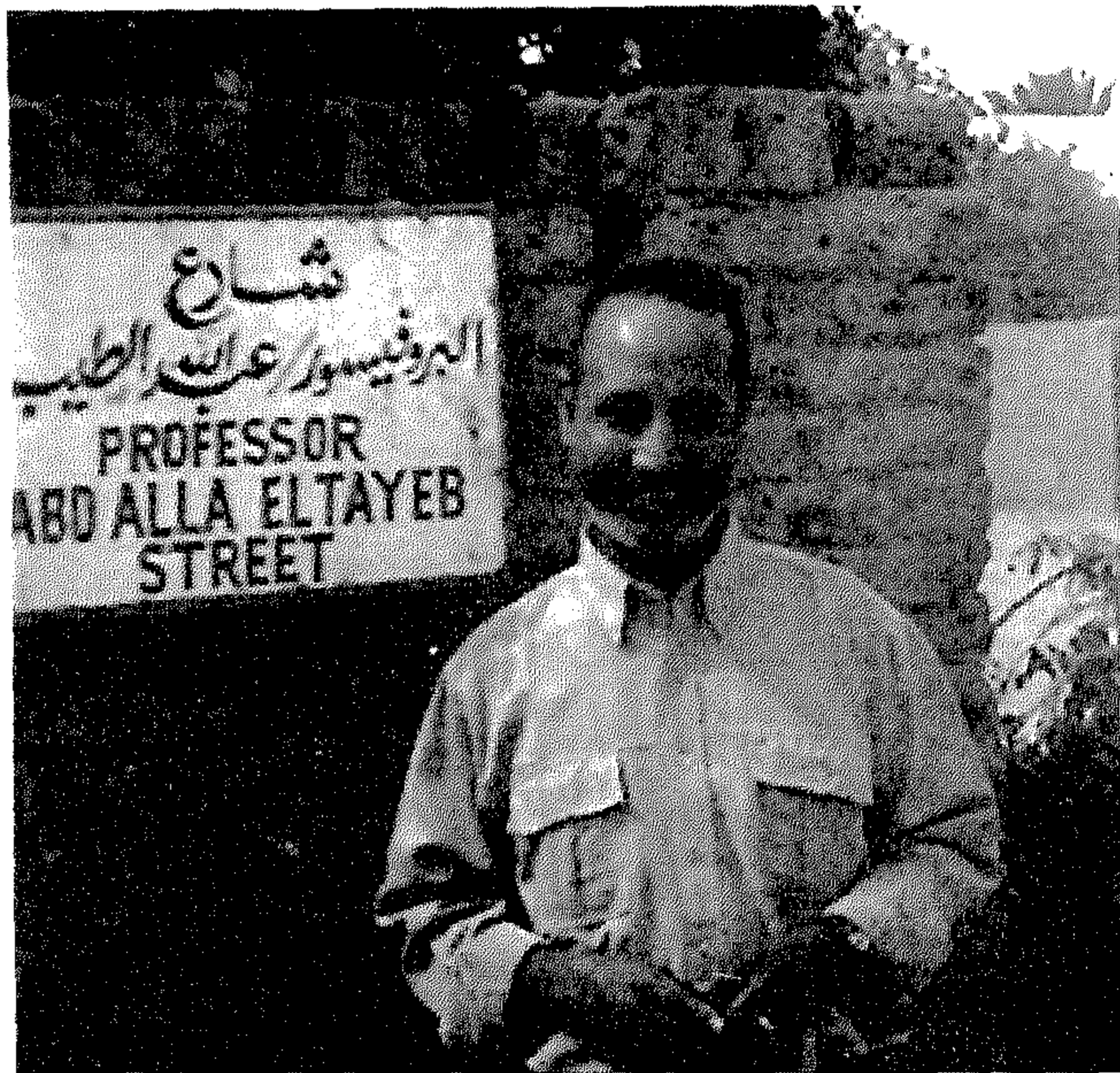
و تنجو بالسلم
و يكون الضعف كالقوة
حقاً و ذماماً
سوف ترعاه الأمم
و تعود الأرض حباً و ابتساماً

ختم عبد الله الطيب رحمه الله كتاباته الشعرية بقصيدة طويلة اسمها برق
المدد يستمد بها قوة ديناميكية من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يرتاد بها
آفاق الخير وقوة ستاتيكية يصمد بها أمام هجمات الشر في دنيا موقوتة يتأرجح
بندولها بين الحرب والسلام ، قصيدة في مجملها صلاة على النبي صلى الله عليه
وسلم:

بحب رسول الله سيفي قاطع
به أنا أغزو و هو عني يدافع
و حب رسول الله في الحرب نافع
و في السلم نور منه في القلب ساطع
و في هذه الدنيا به الشر أدرأ
وهي على نسق النور البراق للسيد محمد عثمان الختم رضي الله عنه:
و أختم قولي بالصلاة معظما
يا ربنا صلى و بارك و سلما
على المصطفى و آل و الصحب دائما
صلاة تفوق المسك عطراً مفحما
يطيب بها كل الوجود و يتلألأ



هاشم مساوى من مواليد سنار ١٩٥٦ والده هو محمد عثمان مساوى ، سائق قطار ، من الجزيرة
مساوى مركز مروي . والدته خديجة الحسن العربى من أمبكول ، عطبرة .
تخرج فى كلية الطب جامعة الخرطوم ١٩٨٢ وعمل بمختلف مستشفيات السودان .
حصل على زمالة علم الأمراض ١٩٩٣ ثم الدكتوراه فى علم أمراض الشيخوخة ١٩٩٦ بألمانيا .
يعمل أخصائى علم أمراض منذ عام ١٩٩٦ بالمدينة المنورة .





دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان

محاولة ذكية كشفت عن النفس الإنسانية المتمثلة
في التشابه الشديد بين عميد أسرتنا العظيم المرحوم
البروفيسور عبد الله الطيب و المناضل العظيم الذائع الصيت
نيلسون مانديلا أدهشتنا بأدق التفاصيل و أوجه الشبه بينهما.
أسرة عبد الله الطيب

في هذا الكتاب الصغير المثير ربط الدكتور مساوي
بين رجلين من أفريقيا. و رغم الاختلاف بين الرجلين إلا أن
كلّ منهما كان عظيماً في مجاله و ذا مقدرة عالية على
التحمل حتى الوصول للغاية. و بما أن الصبر عاقبته الظفر
فقد ابتسم الحظ أخيراً للرجلين و استطاع كل منهما أن يعيش
آخر عقود العمر في سعادة و يهنأ بأمجاد أمته.
قرزilda الطيب

لقد أسعدنا المؤلف بأسلوبه السهل الممتنع و بالفكرة
الذكية التي كانت مصدر شوق للقارئ كي يرى
هذا التشابه بين الرجلين الذي يراه بعيداً قد أصبح
و ممتعاً عجباً.

بروفيسور إبراهيم الحارثو



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان
ناشرون وموزعون ووكلاء دور نشر

786
9
812

